النبـــوة وضـرورتها للإنسانية

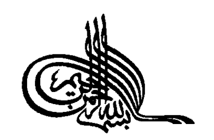
بحث مستقى من رسائل النور للإمام الجليل

بديع الزمان سعيد النورسي

إعداد

خديجة النبراوي





﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن
بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من
رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾



(البقرة : ٢٨٦)



من هو الإمام النورسى ؟

سؤال يطرحه الكثيرون بعد قراءة أى مكتوب يصدر عن رسائل النور، التى تبهرهم بأفكارها العلوية وأنوارها المعنوية.

ورغم أننى كتبت الكثير عن الإمام النورسى، إلا أننى أجد نفسى فى كل مرة عاجزة عن تعريفه بما يليق بمقامه الرفيع، وروحه السامية فى تألقها وتحليقها فى رحاب رب العالمين.

ولا شك أن هذا العجز عن التعريف، راجع إلى أن الإمام النورسى مثل غيره من أولياء الله، يفيض بأسرار تجليات الحق، فأنّى لى أو لغيرى أن يقتحم مجالات تلك الأنوار العالية المقام، التى تغشى القلوب والأبصار .. فلا يقدر قلم مهما أوتى من جرأة أو إقدام أن يتخطى أسوار الأسرار، وإلا يكون جزاؤه أن يحترق فى الحال.

ولذلك فإننى أجتهد قدر جهدى، فى محاولة تسجيل انعكاسات الأنوار التى يتمتع بها إمامنا الحبيب، فى أحوال ومقامات وكلمات. وتلك المحاولة لا تمثل إلا كمن اغترف غرفة بيده من بحر خضم متلاطم الأمواج، ويموج بكنوز اللآلئ والأصداف.

وما دفعنى إلى ذلك إلا طاقة الحب التى يسعد بها قلبى نحو هذا الإمام، الذى أحببناه من أعماق قلوبنا، ولم يكن لنا دور فى هذا الحب، إنما هى فيوضات العلىّ القدير، الذى ألّف بين قلوب عباده المؤمنين، برباط من نور محبته، فهو الفعّال لما يريد، ونحن لعظيم قدرته خاضعين ومسلمين.

ونقول لكل من يتشوق إلى تنسم عبير ذلك الإمام الجليل :

- إنه الإمام العارف بالله، العالم الورع التقى، بديع الزمان وكل زمان "سعيد النورسى".

- ولد عام ١٨٧٦، بشرق الأناضول بتركيا .. وانتقل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٦٠ بعد حياة حافلة بالجهاد المادى والمعنوى، فى أسمى صوره وأبلغ معانيه، سجلها التاريخ بحروف من نور، تنفذ إلى قلوب كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

- لا يمكن بسهولة حصر النعم والمواهب التى أنعم الله بها عليه : فهو عالم متمكن من حدود الشريعة إلى أبعد مدى، ومتبحر فى علوم الحقيقة إلى ما شاء الله له الإبحار فى آفاق عالية، ومستوعب من العلوم الدنيوية ما لا يجاريه فيه عالم من علماء عصره .. وله السبق بفضل من الله - فى كل المزايا التى يمكن أن يحظى بها العلماء، حيث حظى بالمكيال الأوفى، والحب الأسمى.

- كذلك لا يمكن بسهولة إطلاق صفة واحدة تدل عليه : فهو : عالم - عارف بالله - مجاهد - تقى - ورع - زاهد - متواضع - أديب - شاعر - مفكر - حكيم - إنسان بكل ما تعنيه تلك الكلمة من معان، حيث لم يزحزحه عن مقام اليقين، كل ما لاقى من ترغيب أو ترهيب، لأن شغله الشاغل كان اتباع النبى الأمين، وصحبه الغر الميامين.

- أما عن دوره فحدث ولا حرج :
  - فهو المفكر العظيم صاحب حركة إحياء الفكر الدينى فى تركيا، حيث وهب حياته للحفاظ على الهوية الإسلامية فى تلك البلاد، التى تعرضت لأقصى ما تعرضت له دولة إسلامية من غزوات الفكر العلمانى.
  - وهو المجاهد الذى حمل السيف والقلم دفاعاً عن الحق ضد الباطل، وأبرز فى كل الميادين قدرة فائقة وبسالة نادرة، أثارت انتباه الأعداء قبل الأحباء.
  - ويكفيه شرفاً وفخراً أن نقول : إنه صاحب رسائل النور، فهى تعتبر بحق زاد الدعوى الإسلامية لأجيال المستقبل، التى تحتاج إلى البرهان العقلى، والحكمة المستقاة من حقائق القرآن، وتتفق مع روح العصر وكل عصر .. لأن تلك الرسائل ليست نتاج عقل بشرى، بل هى إلهامات نورانية علوية،

تحتاج إلى مرآة قلبية مجلوة، لديها القدرة على تلقى تلك المعانى الغالية السامية.

- إن الإمام النورسى لا يمكن تعريفه فى سطور، فهو يحتاج إلى مجلدات ضخمة .. ولكن نقول لكل من يريد معرفة من هو ذلك الإمام الجليل بحق : انظروا إلى تلاميذه، ومدى وفائهم وإخلاصهم لشيخهم، ومدى النور الذى يشع من وجوههم الوضاءة بالإيمان، علاوة على ما فى قلوبهم من فيوضات ربانية وإلهامات نورانية .. بذلك تعرفون عظمة الأستاذ وجدارته، فى ترجمة معانى القرآن إلى رجال عظام .. حتى لو مرت السنون والأعوام الطوال على رحيله إلى دار البقاء.
- ونقول بأصوات خاشعة لعظمة الرحمن : إن هؤلاء التلاميذ أنفسهم هم العنوان الصادق، والبرهان القاطع على ما بين الإمام الحبيب وبين ربه الذى صدق وعده ورفع ذكره، حيث قال الإمام النورسى ﷺ بكل اليقين : "إن تلاميذى قد اختارهم الله منذ الأزل" .. ومرت السنون والأعوام لتثبت تلك المقولة المطمئنة لوعد ربها، حيث انجذب الكثيرون من طلبة وطالبات النور بقوى ربانية تخرج عن كل القوى البشرية، وتثير كل الانبهار بالقدرات الإلهية.

فاللهم انفعنا بعلمه، ولا تحرمنا أجره. واجمعنا يا رب به مع الأحبة : "محمد وصحبه" إنك على كل شىء قدير وبالإجابة جدير. وصلى الله على معلم البشرية الأكبر الحبيب المصطفى، إمام المتقين، وقدوة الداعين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

طالبة النور

خديجة النبراوى



والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وكل من اهتدى بهديه واتبع سنته بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ..

إنه لمن دواعي امتناني للعليّ القدير، على نعمه التي لا تعد ولا تحصى : أن أقدم هذا البحث إلى كل نفس حائرة تتحسس خطاها على درب الحياة، وإلى كل نفس تعتصرها الهموم والأحزان، وإلى كل نفس تلهث وراء الأهواء والشهوات، وإلى كل نفس تذرف الدمع على ما ضيعته من أعمار.

إلى هؤلاء جميعاً : أقدم بحثي هذا **"النبوة وضرورتها للإنسانية"** .. داعية المولى عزّ وجلّ أن يكون نبراساً يبدد ظلمات حياتهم، ومنارة تهديهم في خضم عثراتهم، وبلسماً يداوي جراحهم .. فهذا البحث قبس من أنوار "رسائل النور" لإمامنا الحبيب النورسي، يعينهم على تعرف طريقهم إلى الله، وزاد معنوي يستزيدون به خلال رحلتهم في الحياة، لا يقل أهمية عن زادهم المادي، بل يزيد في خطورته وأهميته، لأنه لا يعني السعادة الدنيوية فقط، بما تتضمنه من راحة البال والضمير، وانشراح الصدر وسكينة القلب والفؤاد، ونضج العقل واتساع آفاقه ومداه. بل تمتد آثار ذلك الزاد لتحقيق السعادة الأبدية، والتي لا تعدلها أية سعادة، مهما أوتي الإنسان من وسائل الحياة المادية، ودرجات الحضارة والرفاهية.

وإذا تساءل سائل : لماذا يكتسب البحث كل هذه الأهمية؟

فأقول وبالله التوفيق :

- لأن النبوة هي منحة ربانية تمثل أعظم معاني الرحمة الإلهية للبشرية، لتخرجها من ظلمات الجهالة العمياء إلى أنوار السماء العلياء، ومن الشك والشرك والشبهات إلى اليقين برب العالمين.

- والنبوة هى التى تحول الإنسان من صلصال فخار، إلى نور وضّاء، يستطيع أن يحلق بروحه وفكره فى أسمى المجالات، وتعلمه كيف يواجه أقصى التحديات، لأن معه رب الأرضين والسماوات.
- والنبوة هى التى تحل للإنسانية الأسئلة الثلاثة المعضلة التى شغلت العقول وأوقعتها فى الحيرة .. إنها الأسئلة التى يسأل عنها كل موجود وهى :

من أنا ؟

ومن أين ؟

وإلى أين ؟

- والنبوة هى البلسم الشافى لكل الاحتياجات الإنسانية، الروحية والفكرية والمعنوية .. حيث تقدم له الاطمئنان الكافى لكل ما يعتريه، من حالات الخوف واليأس القاتل والقلق والإحساس بالغربة وبالضياع، كما تلبى له الاحتياجات الفطرية اللانهائية للحب، والاحتياج للقدوة، والاحتياج إلى الرحمة والرأفة والسلوان.
- والنبوة تحرر الإنسان من السجن داخل دائرة نفسه، وتساعده على الانطلاق عبر الآفاق، سواء فى الأرض أو فى السماوات، وتدرعه بحصن حصين لمواجهة قوى الشر، من شياطين الإنس والجان.
- والنبوة هى التى تعرفنا أسرار الأرض والسماوات، فى الحياة وبعد الممات، وتعرفنا الإدراكات الغيبية، وكيفية الاستمداد من الأنوار الإلهية، وكيفية الاستناد على الذات العلية.
- والنبوة تخلصنا من كثافة الفلسفة العقلية، التى تتيه تحت ركام المادية، ولا تحلق بنا فى الآفاق النورانية .. وبذلك فالنبوة تعطينا خلاصة المعرفة فى الدنيا، وتوصلنا بأيسر السبل إلى الحضرة الإلهية.

- والنبوة هى الأبوة فى أسمى صورها وأنبل معانيها : فهى تأخذ بيدنا إلى طريـق الفلاح، وتحبونا بالشفقة والرحمة والحنان، وتجعلنا نعيش فى سلام فـى أسـرتنا الكبيرة، حتى لو اتسعت وشملت العالم بأجمعه، وتعلمنـا أروع معـانى الإنسـانية والاحترام.
- والنبوة هى مدرسة إلهية، تعلمنا كيـف نجتـاز العثرات الدنيويـة برضـا وسـكينة وأمان، لننعم بحياتنا الأخروية بالفوز بالجنـان، ورضـا الرحمـن، وصـحبـة خـير الأنام محمد ﷺ والنبيين والصديقين والشهداء، وكل من سار على درب الإيمـان بإحسان.
- والنبوة تعلمنا كيف نتعانق مع الكون فـى حـب واطمئنـان، ونـردد مـع الكائنـات أنشودة الخلود "لا إله إلا الله" فتنبعث فى أرواحنا وأجسادنا أروع معـانى الأمـن والسلام، والحب والوئام.
- والنبوة تعلمنا كيف نعالج أنانيتنا المفزعة، التى لا تنتهى من أوهامها الفارغة فى دنيانا الفانية، ونوجهها نحو الحياة الباقية، فنشفى من معاناتنا، ونتخفف من وطأة أطماعنا، لأننا نتطلع إلى مرضاة ربنا، ونعيم الدار الآخرة.

من أجل هذا، وأكبر مـن ذلـك بكثـير، فنحـن – معشـر المؤمنيـن – نحـب الأنبياء من أعماق قلوبنا، ومن سويداء فؤادنا، لأنهم رسل كرام، من لدن حكيم خبير عليم بضعفنا واحتياجاتنا، فمد يده إلينا ببعثة من اصطفاهم من البشرية، لانتشالنا مـن وهدة الضلال إلى نبع الأنوار.

واختص المسلمين بنبى أمين، هو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فكـان نعـم البشـير النذيـر، الذى أرسـله اللـه رحمـة للعـالمين، بهدايتهم إلـى الصـراط المسـتقيم ومعرفة الحق المبين.

ولذلك يسعدني ويشـرفني أن أقدم بحثي هذا، المستقى من رسـائل النـور لإمامنا الجليل بديع الزمان سعيد النورسي، صاحب القلب المتـألق بـالأنوار الإلهيـة، والفكر المستنير بإشعاعات القلب النورانية.

وأشهد الله شهادة أستودعها في خزائن الرحمـة الإلهيـة : أنني مـا قصـدت رسائل النور لأستقي منها أي بحث، إلا وجدتها نبعاً فياضـاً بالموضوعـات القيمـة المتنوعة، حيث تمتاز بثراء الفكر الذي لا حدود له.

ولا أملك في النهاية إلا أن أردد مع إمامنا الحبيب تلك الدعوات المباركـات ساجدين لله شكراً على ما أنعم به علينا فنقول : الحمد لله على الإيمـان باللـه، إذ بـه تخلص الأرواح من ظلمات العدم، ووحشة الأكوان، ومـن .. ومـن .. ومـن .. إلـى مالا يحد من الأهوال.

وليحقق البحث هدفه الذي نقصده، فقد قسمناه إلـى عدة فصـول رئيسـية تتضمن نقاطاً فرعية متعددة.

وتلك الفصول هي :

- النبوة منحة ربانية للبشرية.
- معجزات الأنبياء منارات هدى للإنسانية.
- دور النبوة في تلبية الاحتياجات الإنسانية.
- الفرق بين النبوة والفلسفة في إثراء الأفكار الإنسانية.
- كمال النبوة في سيدنا محمد ﷺ.
- كيفية الوصول والوسيلة إلى الرسول الحبيب ﷺ.

أدعو الله أن يتقبل منا صالح أعمالنا، ويوفقنا إلى مـا يحبـه ويرضـاه، فإنـه نعم المولى ونعم النصير.

والله من وراء القصد، وهو الموفق والهادي إلى الصراط المستقيم.

الفصل الأول

النبوة منحة ربانية للبشرية

فى كلمات موجزة البيان، بليغة الأداء، يعبر الإمام النورسى عن ضرورة النبوة للبشرية، وكيف أنها أعظم منحة للبشرية .. فيقول رضى الله عنه وأرضاه : إن القدرة الإلهية التى لا تترك النمل من دون أمير، والنحل من دون يعسوب (أمير النحل وذكرها) لا تترك حتماً البشر من دون نبى، ومن دون شريعة .. نعم هكذا يقتضى سر نظام العالم[1].

ونحاول فى هذا الفصل أن نتناول تلك الكلمات الموجزات بالتفصيل الذى يسمح به المجال، أما من يريد الاستزادة، فعليه الرجوع إلى رسائل النور، فهى تحتوى من الكنوز ما يعجز أولى القوة عن الاغتراف منها، إلا بقدر ما يأذن لهم به المولى عزّ وجلّ.

لماذا النبوة ؟

إن الله تعالى الذى خلق هذا الكون إظهاراً لألوهيته ومعبوديته، على هيئة كتاب صمدانى مجسم، بحيث تعبر كل صحيفة من صحائفه عن معانى الكتاب .. وخلقه على شكل قرآن سبحانى مجسم، بحيث أن كل آية من آياته التكوينية، وكل كلمة من كلماته، بل حتى كل حرف منه وكل نقطة، بمثابة معجزة تقدسه وتسبحه .. وخلقه على صورة مسجد رحمانى مهيب، وزينه بما لا يحد من الآيات والنقوش الحكيمة، بحيث أن فى كل زاوية منه طائفة منهمكة بنوع من العبادة الفطرية لخالقهم الرحمن.

فهل يمكن ألا يرسل هذا الخالق المعبود الحق أساتذة ليدرسوا معانى ما فى ذلك الكتاب الكبير ويعلموا الناس ما فيه ؟

---

(١) الكلمات - ص ٨٤٣ - اللوامع.

أم هل يمكن ألا يعين **أئمة** لذلك المسجد الأكبر، ليؤموا الذين يعبدونه بأنماط وأشكال مختلفة من العبادات ؟

أم هل يمكن ألا يزود أولئك الأساتذة والمفسرين والأئمة **بالأوامر السلطانية**؟ حاش لله وكلا .. وألف مرة كلا !

ثم إن الخالق الرحيم الكريم، الذى خلق هذا الكون، إظهاراً لجمال رحمته على ذوى الشعور، وحسن رأفته بهم، وكمال ربوبيته لهم، وليحثهم على الشكر والحمد .. قد خلقه على هيئة دار ضيافة فخمة، ومعرض رائع واسع، ومتنزه جميل بديع، وأعد فيه ما لا يحد من النعم اللذيذة المتنوعة المختلفة، ونظم فيه مالا يعد من خوارق الصنعة، وبدائعها الرائعة.

فهل يمكن ألا يتكلم هذا الخالق الرحيم الكريم - **بواسطة رسله** - مع ذوى الشعور من مخلوقاته فى دار ضيافته الفاخرة هذه ؟ أم هل يعقل ألا يعلمهم وظائف شكرهم وكيفية امتنانهم تجاه تلك النعم الجسيمة، **ومهام عبوديتهم** تجاه رحمته السابغة وتودده الظاهر ؟!

كلا .. ثم ألف ألف مرة كلا ! [١]

فبنو آدم قافلة متسلسلة راحلة من أودية الماضى وبلاده، سافرة فى صحراء الوجود والحياة، ذاهبة إلى شواهق الاستقبال .. فكان لابد أن يبرز من ظلمات العدم إلى ضياء الوجود، بقدرة سلطان الأزل، **الرسل الكرام**، الذين اصطفاهم الله من بين البشر وكلفهم بحمل الأمانة، ليوقظوا الناس من سباتهم سائلين : "يا بنى آدم ! من أين ؟ إلى أين ؟ ما تصنعون ؟ من سلطانكم ؟ من خطيبكم ؟" [٢].

إنهم جميعاً يخبروننا أن السلطان قد أعد مكاناً فخماً رائعاً لمكافأة المحسنين وآخر رهيباً لمعاقبة المسيئين .. وأنه يعد وعداً قوياً، ويوعد وعيداً شديداً، وهو أجل

---

(١) الشعاعات، ص ٢٩٦.

(٢) إشارات الإعجاز، ص ٢٣.

وأعز من أن يذل إلى خلاف ما وعد وتوعد .. وأن مقر هذه السلطنة العظيمة التى نرى آثارها وملامحها هنا، إنما هو فى مملكة أخرى بعيدة، وأن العمارات فى ميدان الامتحان هذا بنايات وقتية، وستبدل إلى قصور دائمة، فتبدل هذه الأرض بغيرها .. لأن هذه السلطنة الجليلة الخالدة، لا يمكن أن تقتصر هيمنتها على مثل هذه الأمور الزائلة، التى لا بقاء لها ولا دوام ولا كمال ولا قرار ولا قيمة ولا ثبات، بل تستقر على ما يليق بها وبعظمتها، من أمور تتسم بالديمومية والكمال والعظمة.

إذن هناك دار أخرى، ولابد أن يكون الرحيل إلى ذلك المقر. وأن للسلطان العظيم المستور عنا الشيء الكثير من الأمور الخارقة[1]. ولا شك أن : الإنصات لهؤلاء الرسل الكرام يحرر الإنسان من قبضة الأوهام والأهواء، ويحرره من أسر النفس والسجن الأبدى.

الرسل تعرف لنا الله والحياة الأزلية :

ما دام الكون قد خلق لأجل الحياة، وأن الحياة هى أعظم تجلى، وأكمل نقش، وأجمل صنعة للحى القيوم جلَّ جلاله .. فإن حياة ذى الجلال السرمدية الخالدة تظهر وتكشف عن نفسها بإرسال الرسل وإنزال الكتب. إذ لو لم تكن هناك **"رسل"** ولا **"كتب"** لما عُرفت تلك الحياة الأزلية، فكما أن المتكلم يبين حيويته وحياته عند حديثه، كذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام، والكتب المنزلة عليهم، يبينون ويدلون على ذلك المتكلم الحى، الذى يأمر وينهى بكلماته وخطاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون .. فلابد أن الحياة التى فى الكون تدل دلالة قاطعة على **"الحى الأزلى"** سبحانه وتعالى، وعلى وجوب وجوده. كما أن شعاعات الحياة الأزلية كذلك وتجلياتها، تنظر وتتوجه إلى ما لها ارتباطات وعلاقات معها من أركان الإيمان مثل **(إرسال الرسل)** و**(إنزال الكتب)** وتثبتهما رمزاً، ولا سيما "الرسالة

---

(١) الكلمات – ص ٥٥ : ٥٩.

المحمدية" و"الوحي القرآني". إذ يصح القول : إنهما ثابتان قطعاً كقطعية ثبوت الحياة، حيث أنهما بمثابة الروح والعقل والحياة[1].

ويناجي الإمام النورسي ﷺ ربه، اعترافاً بفضله على تفضله ببعثته رسله فيقول : يا ربي الرحيم .. لقد أدركت بتعاليم الرسول ﷺ وفهمت من تدريس القرآن الحكيم : أن الكتب المقدسة جميعها، وفي مقدمتها القرآن الكريم، والأنبياء عليهم السلام جميعهم، وفي مقدمتهم الرسول الأكرم ﷺ، يدلون، ويشهدون، ويشيرون بالإجماع والاتفاق، إلى أن تجليات الأسماء الحسنى – ذات الجلال والجمال – الظاهرة آثارها في هذه الدنيا، وفي العوالم كافة، ستدوم دواماً أسطع وأبهر في أبد الآباد.

وأن تجلياتها – ذات الرحمة – وآلاءها المشاهدة نماذجها في هذا العالم الفاني، ستثمر بأبهى نور وأعظم تألق، وستبقى دوماً في دار السعادة. وأن أولئك المشتاقين الذين يتملونها – في هذه الحياة الدنيا القصيرة – بلهفة وشوق، سيرافقونها بالمحبة والود، ويصحبونها إلى الأبد، ويظلون معها خالدين.

وأن جميع الأنبياء، وهم ذوو الأرواح النيرة، وفي مقدمتهم الرسول الأكرم ﷺ، وجميع الأولياء، وهم أقطاب ذوي القلوب المنورة .. وجميع الصديقين، وهم منابع العقول النافذة النيرة .. كل أولئك يؤمنون إيماناً راسخاً عميقاً بالحشر، ويشهدون عليه، ويبشرون البشرية بالسعادة الأبدية، وينذرون أهل الضلالة بأن مصيرهم النار، ويبشرون أهل الهداية بأن عاقبتهم الجنة، مستندين إلى مئات المعجزات الباهرة والآيات القاطعة، وإلى ما ذكرته أنت يا ربي مراراً وتكراراً في الصحف السماوية، والكتب المقدسة كلها، من آلاف الوعد والوعيد .. .. ومعتمدين على عزة جلالك وسلطان ربوبيتك وشئونك الجليلة، وصفاتك المقدسة، كالقدرة

---

(١) اللمعات – ص ٥٦٧، الكلمات – ص ١١٨، ١١٩.

والرحمة والعناية والحكمة والجلال والجمال، وبناء على مشاهداتهم وكشفياتهم غير المحدودة، التى تنبئ عن آثار الآخرة ورشحاتها، وبناء على إيمانهم واعتقادهم الجازم الذى هو بدرجة علم اليقين وعين اليقين.

فيا قدير ويا حكيم ويا رحمن ويا رحيم، ويا صادق الوعد الكريم، ويا ذا العزة والعظمة والجلال، ويا قهار ذو الجلال .. أنت مقدس ومنزه، وأنت متعال عن أن توصم بالكذب كل أوليائك، وكل وعودك وصفاتك الجليلة وشئونك المقدسة .. فتكذبهم أو تحجب ما يقتضيه قطعاً سلطان ربوبيتك، بعدم استجابتك لتلك الأدعية الصادرة من عبادك الصالحين، الذين أحببتهم وأحبوك، وحببوا أنفسهم إليك بالإيمان والتصديق والطاعة .. فأنت منزه ومتعال، مطلق من أن تصدق أهل الضلالة والكفر فى إنكارهم الحشر، أولئك الذين يتجاوزون على عظمتك وكبريائك بكفرهم وعصيانهم، وتكذيبهم لك ولوعودك، والذين يستخفون بعزة جلالك، وعظمة ألوهيتك، ورأفة ربوبيتك.

فنحن نقدس بلا حد ولا نهاية عدالتك وجمالك المطلقين، ورحمتك الواسعة، وننزهها من هذا الظلم والقبح غير المتناهى .. ونعتقد ونؤمن بكل ما أوتينا من قوة، بأن الآلاف من الرسل الكرام، وبما لا يعد ولا يحصى من الأنبياء والأصفياء والأولياء، الذين هم المنادون إليك، هم شاهدون بحق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين، على خزائن رحمتك الأخروية، وكنوز إحساناتك فى عالم البقاء، وتجليات أسمائك الحسنى، التى تنكشف كلياً فى دار السعادة.

ونؤمن أن هذه الشهادة حق وحقيقة، وأن إشاراتهم صدق وواقع، وأن بشاراتهم صادقة وواقعة .. فهؤلاء جميعاً يؤمنون بأن هذه الحقيقة الكبرى "أى الحشر" شعاع عظيم من اسم "الحق" الذى هو مرجع جميع الحقائق وشمسها، فيرشدون عبادك – بإذن منك – ضمن دائرة الحق، ويعلمونهم بعين الحقيقة.

فيا ربى ! بحق دروس هؤلاء، وبرحمة إرشاداتهم، آتنا إيماناً كاملاً، وارزقنا حسن الخاتمة، لنا ولطلاب النور، واجعلنا أهلاً لشفاعتهم .. آمين[١].

التكليف تأمين لسعادة البشرية :

يرى الإمام النورسى ﷺ : أن اضطرابات الأرواح والعقول ناشئة من ضلالتها واستنكاراتها واستغراباتها وحيرتها، بإسناد الأشياء إلى أنفسها .. ولن تستريح تلك الأرواح والعقول إلا بالفرار إلى الواحد الأحد، الذى بقدرته يحصل إيضاح كل مشكل، وبإرادته يحصل فتح كل مغلق، وبذكره تطمئن القلوب[٢].

واعلم : أن كل ما أنعم به الله على الإنسان، له شرائط ومفاتيح، بعضها آفاقية، وبعضها أنفسى .. مثلاً : أن الله أنعم بالضياء والهواء والغذاء والصدى، وعلق الاستفادة منها على فتح العين والأنف والفم والسمع وهكذا .. مع أن هذه الفتوح الأنفسية من كسبنا، ولكن لا يحصل فتح شىء من المغلقات إلا باتصاله بإرادته، ولا يطمئن قلب ولا يستقر يقين فى مسألة من المسائل، إلا بربطها بذكره واسمه جلَّ جلاله[٣].

واعلم : أنك بسيئاتك لا تضر الله شيئاً إنما تضر نفسك .. فليس فى الخارج شريك حتى تقويه باعتقادك، فتؤثر فى كمال ملكه تعالى، بل فى ذهنك وفى عالمك فقط، فيخرب بيتك على رأسك.

واعلم : أنه من توكل على الله فهو حسبه، فقل "حسبى الله ونعم الوكيل" لما يلى :

- لأنه الكامل المطلق، والكمال محبوب لذاته، وتفدى له الأرواح.

---

(١) الكلمات – ص ١٠٨ : ١١٠.

(٢) المثنوى – ص ١٨٤.

(٣) المثنوى – ص ١٨٨.

- لأنه محبوب لذاته، وهو المحبوب الحقيقى، والمحبة تقتضى الفداء.
- لأنه الموجود الواجب، وبقربه أنوار الوجود، وببعده ظلمات العدم، وألم أليم فى أفول آمال الروح الإنسانى.
- لأنه الملجأ والمنجأ للروح الذى ضاقت عليه الأكوان، وآلمته مزخرفات الدنيا، وعادته الكائنات، وانقض ظهره تحت عاديات الزمان.
- لأنه الباقى الذى به البقاء، وبدونه الزوال، وكل العذاب فى الزوال .. وبدونه يتراكم على الروح آلام بعدد الموجودات، وبه يتظاهر على المتوكل أنوار بعددها.
- لأنه المالك يحمل عنك ملكه الذى عندك، إذ لا تطيق حمله .. وبتوهم التملك تقع فى عذاب أليم أليم. فلبقائه ودوام إنعامه، لا تغتم بفناء ما فى يدك.
- لأنه الغنى المغنى، وبيده مقاليد كل شىء، إذا صرت عبداً خالصاً له، ثم إذا نظرت إلى الكائنات بعد ذلك، تراها ملك مالكك، فتتنزه فيها، كأنها ملك لك، بل أعلى، بلا كلفة ولا ألم زوال .. إذ الخادم الخاص للملك، والفانى فى محبته، يفتخر بكل ما للملك.
- لأنه رب الأنبياء والمرسلين والأولياء والمتقين، وكلهم مسعودون فى رحمته، فعلمك بسعادتهم يعطيك فى شقاوتك سعادة ولذة، إن كنت ذا قلب[(١)].

فاعلم : أنه من كمال السعادة واللذة الحقيقية، ترك كل شىء حتى الوجود، لأجل أنه جل شأنه هو هو، ولأجل أنه واجب الوجود، ولأجل أنه الكامل المطلق، ولأجل أنه ذو الجلال والجمال المطلق، فليكن له فداء كل شىء لى، وكلى والكل وكل شىء[(٢)].

(١) المثنوى – ص ٢٣٣، ٢٣٤.

(٢) المثنوى – ص ٣١١.

فإن تساءلت : لقد قلت إن التكليف لتأمين سعادة البشر، مع أنه قد يكون سبباً لوقوع الكثيرين فى الشقاوة، ولولاه لما صار التفاوت بهذه الدرجة .. فكيف تفسر لنا ذلك ؟

وأقول لك : إن الله تعالى لما كلف الجزء الاختيارى بكسبه، فى تشكيل عالم الأفعال الاختيارية، فإنه كذلك جلّ شأنه جعل التكليف سبب إسقاء وإنبات البذور الغير المحصورة، المودعة فى روح البشر، ولولاه لبقيت الحبوب يابسة .. فإذا تأملت فى أحوال النوع بنظر نافذ، رأيت كل ترقيات الروح المعنوية، وكل تكملات الوجدان الإلهية، وتكملات العقل، وترقيات الفكر المثمرة – بدرجة تتحير فيها العقول – إنما وجدت كافة بالتكليف، واستيقظت ببعثة الأنبياء، وتلقحت بالشرائع، وألهمت من الأديان .. ولولا تلك المنح الربانية، لبقى الإنسان حيواناً، ولانعدمت هذه الكمالات الوجدانية، وتلك المحاسن الأخلاقية.

أما القسم القليل الذين قبلوا التكليف اختياراً، فقد فازوا بالسعادة الشخصية، وصاروا سبباً للسعادة النوعية .. أما القسم الكثير كمية، فهم وإن كفروا بقلوبهم، وفيما هم فيه مختارون، إلا أنه لما لم يكن كل حال كافر كافراً، وكل صفته كافرة يابسة، فإنهم بسبب إيقاظ بعثة الأنبياء للحسيات الوجدانية، وتنبيه النبوة للسجايا الأخلاقية، وانتشار الشرائع، وتعارف آثارها، يكونون بذلك قد قبلوا أنواعاً من التكليف اضطراراً.

وهذا مثل من كان له مائة نواة تمر، سقاها بالماء، فصار عشرون منها نخلات باسقات وتفسخ ثمانون .. ألا يقول إن الماء سعادة لهذا النوع ؟

وهكذا فنشوء الحسيات العالية، ونمو الأخلاق إنما هو بالمجاهدة .. ألا ترى أن الحكومة إذا جاهدت ينمو فيها الجسارة، وإذا تركت انطفأت ؟ تأمل هذا تعرف قيمة التكليف فى تحقيق السعادة[1].

---

(١) إشارات الإعجاز – ص ٢٠٧.

تصديق الرسل كافة ينبوع متدفق للإيمان :

إن بين الإيمان بالله، والإيمان بالأنبياء، والإيمان بالحشر، والتصديق بوجود الكائنات، تلازماً قطعياً وارتباطاً تاماً، للتلازم فى نفس الأمر بين وجوب الألوهية وثبوت الرسالة، ووجود الآخرة وشهود الكائنات بدون غفلة.

إذ كما لا يمكن وجود كتاب بلا كاتب، كذلك لا يمكن شهود كتاب الكائنات بلا إيمان بوجوب وجود نقاشه الأزلى .. وكما لا يمكن وجود بيت بلا بان وصانع، كذلك لا يمكن التصديق بوجود هذا العالم، بلا تصديق بوجود صانعه.

وكما لا يمكن شهود تلألؤ القطرات المائية فى وسط النهار، مع إنكار وجود الشمس، كذا لا يمكن شهود هذه الكائنات المتحولة دائماً فى انتظام، المتجددة فى انسجام، بلا تصديق بوجود خالقها وبانيها، الذى أسس ذلك البيت المحتشم بأصول مشيئته وحكمته، وفصله بدساتير قضائه وقدره، ونظمه بقوانين عادته وسنته، وزينه بنواميس عنايته ورحمته، ونوره بجلوات أسمائه وصفاته.

ثم إنه كما لا يمكن وجود الشمس بلا نشر ضياء، كذلك لا يمكن الألوهية، بلا تظاهر بإرسال الرسل .. ولا يمكن جمال فى نهاية الكمال، بلا تبارز وبلا تعرف بواسطة رسول معرّف .. ولا يمكن سلطنة ربوبية عامة، بلا عبودية كلية، بإعلان وحدانيته وصمديته فى طبقات الكثرة، بواسطة مبعوث ذى الجناحين .. ولا يمكن حسن لا نهاية له، بلا طلب لمشاهدة محاسن جماله، ولطائف حسنه فى مرآة، بواسطة عبد حبيب يتحبب إليه، ورسول يحببه إلى الناس .. ولا يمكن وجود كنوز مشحونة بعجائب المعجزات، بلا إرادة صاحبها ومحبته لعرضها على الأنظار، وإظهارها على رؤوس الأشهاد، لتبين كمالاته المستورة بواسطة معرف صراف ومشهر وصّاف[1].

---

(١) المثنوى العربى النورى – ص ٨٦ : ٨٨.

حقاً، إن جميع الأنبياء عليهم السلام، وهم خيرة نوع البشر وأكملهم قاطبة، يذكرون بلسان واحد، ويرددون معاً بالإجماع "لا إله إلا هو" وهم جميعاً يدعون إلى التوحيد الخالص، بقوة ما لا يحد من معجزاتهم الباهرة المصدقة لهم ولدعواهم .. إنهم جميعاً يدعون البشرية إلى الإيمان بالله، لإخراجها من مرتبة الحيوانية، ورفعها إلى درجة الملائكية. فبين يدى كل من أولئك الأئمة الهداة الأعلام للبشرية معجزات وخوارق، هى علائم تصديق لهم من لدن رب العالمين سبحانه، وقد تكونت طائفة عظيمة، وأمة غفيرة مصدقة من البشر، دخلت حظيرة الإيمان بتبليغ كل منهم .. وإن المعجزات التى لا حصر لها، هى تصديق فعلى من لدن الحق سبحانه وتعالى للأنبياء عليهم السلام .. والصفعات السماوية التى نزلت بالمنكرين المعارضين لهم، أظهرت أحقيتهم وتأييد الله لهم .. أما كمالاتهم الشخصية وإرشاداتهم السديدة، فهى تدل على أنهم على حق أبلج، وتدل على قوة التوحيد ورصانته .. وقوة إيمانهم وغاية جديتهم، ونهاية تجردهم، تشهد كلها على صدقهم وصواب دعوتهم .. وما فى أيديهم من الكتب والصحف المقدسة، وتلاميذهم غير المحدودين، الذين بلغوا الحقيقة وارتقوا إلى الكمال، واهتدوا إلى النور باتباعهم لهم .. يشهد كل ذلك على أحقية سبيلهم وصواب طريقهم.

علاوة على كل هذا : فإن إجماع أولئك المبلغين الصادقين فى المسائل المثبتة، لهو حجة قاطعة على صدق الإيمان، وقوة عظيمة تعزز حقيقته، بحيث لا تستطيع قطعاً أية قوة فى العالم أن تصارعها، فهى حقيقة دامغة، تنحسر أمامها كل شبهة أو ريب.

وهكذا فإن تصديق الرسل كافة يعتبر ركن من أركان الإيمان، لأنه ينبوع دفاق ومصدر قوة عظيمة للمؤمنين[1] .. ولهذه الأهمية القصوى للإيمان بالرسل، قال الحق عزّ وجلّ فى كتابه الكريم :

---

(١) الشعاعات - ص ١٥٥، ١٥٦.

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون. كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾

(البقرة، ٢٨٦)

سيدنا محمد ﷺ سلطان الأنبياء :

فى إجابة عن سؤال "لم اختص سيدنا محمد ﷺ بهذا المعراج العظيم ؟" تكلم الإمام النورسى ﷺ عن كمالات هذا النبى الكريم، التى تجعله بحق أفضل الخلق، وخاتم الأنبياء وسيد المرسلين .. والحق يقال : إن رسائل النور كلها تنشد بعظمة هذا النبى، وكأنها أنشودة حب تغرد للحبيب المصطفى وكمالاته ومعجزاته .. ويكفيه فخراً وشرفاً : أنه بعث للبشرية بالقرآن العظيم.

ونحاول هنا جاهدين أن نلخص بعض الفيض الذى تترنم به رسائل النور عن الأسباب التى تجعل سيدنا محمد ﷺ، سلطان الأنبياء فى تلك الكلمات الموجزات[1].

أولها : هو اتصافه ﷺ بجميع السجايا الفاضلة والخصال الحميدة فى أعلى المراتب، اتفق على ذلك الأعداء والأولياء، يشهد بذلك معاملاته وسلوكه مع الناس وأن شريعته الغراء تضم أكمل الخصال الحسنة، يشهد بذلك مكارم الأخلاق فى دينه القويم .. بالإضافة إلى ظهور مئات المعجزات منه، كانشقاق القمر إلى نصفين بإشارة من إصبعه، كما نص عليه القرآن ﴿وانشق القمر﴾ .. وانهزام جيش الأعداء بما دخل أعينهم جميعاً من التراب القليل، الذى رماه عليهم بقبضته الشريفة، كما نصت عليه الآية الكريمة : ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال، ١٧) .. وارتواء أصحابه من الماء النابع كالكوثر، من بين أصابعه الخمسة المباركة، عندما

(١) لمزيد من التفاصيل فى هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى المعجزات الأحمدية، ص ١١١ : ٢٨٠ من المكتوبات.

اشتد بهم العطش. وأمثالها من المعجزات الثابتة لدى العلماء المحققين والتى تبلغ الألف، قد أثبتتها كتب السير والتاريخ.

ثانيها : كون القرآن الذى بيده معجزاً من أربعين وجهاً[١]. وأنه كلام رب العالمين، ذلك الأمر الصادر من مالك الكون، الذى يسلم به ويصدقه أكثر من ثلاثمائة مليون من البشر فى كل عصر .. لذا فإن هذا الأمين على كلام الله، والمترجم الفعلى له، والمبلغ لهذا النبأ العظيم إلى الناس كافة، وهو الحق بعينه والحقيقة بذاتها، لا يمكن أن يصدر منه كذب قط، ولن يكون موضع شبهة أبداً.

ثالثها : أن الكتب المقدسة، التوراة والإنجيل والزبور، رغم تعرضها إلى التحريفات طوال العصور، تبشر ببعثته المباركة .. وقد استنبط فى عصرنا هذا المحقق "حسين الجسر" مائة وعشر بشارة منها، تخص نبوة الرسول الكريم ﷺ وأثبتها فى كتابه الموسوم "الرسالة الحميدية" .. كما أنه ثابت تاريخياً – ورويت بروايات صحيحة – بشارات كثيرة بشر بها الكهان من أمثال الكاهنين المشهورين : "شق وسطيح" قبيل بعثته ﷺ وأخبر أنه نبى آخر الزمان .. بالإضافة إلى ما حدث ليلة مولده ﷺ من سقوط الأصنام فى الكعبة، وانشقاق إيوان كسرى، وأمثالها من مئات الإرهاصات والخوارق المشهورة فى كتب التاريخ.

رابعها : أن الرسول الكريم ﷺ هو الذى أظهر أعلى مراتب العبودية، وأسماها بالعبودية العظيمة فى دينه، تلبية لإرادة الله فى ظهور ألوهيته بمقتضى الحكمة[٢].

وإنه هو كذلك – كما هو مشاهد – أعظم دالّ على كمال صنعة، فى جمال مطلق لصانع العالم، وبأعظم دعوة وأندى صوت، فلبّى إرادة الله جل وعلا فى جلب الأنظار إلى كمال صنعته والإعلان عنها.

---

(١) يمكن الرجوع إلى ذلك فى الكلمة الخامسة والعشرين أى رسالة "المعجزات القرانية"، (الكلمات).

(٢) الإشارة الثانية من الكلمة العاشرة، (الكلمات).

وإنه هو كذلك - بالضرورة - أكمل من أعلن عن جميع مراتب التوحيد، فلبّى إرادة رب العالمين فى إعلان الوحدانية على طبقات كثرة المخلوقات.

وإنه هو كذلك - بالضرورة - أجلى مرآة وأصفاها لعكس محاسن جمال مالك العالم، ولطائف حُسنه المنزّه، كما تشير إليه آثاره البديعة، وهو أفضل من أحبَّه وحببُّه، فلبّى إرادته سبحانه فى رؤية ذلك الجمال المقدس، وإراءته بمقتضى الحقيقة والحكمة.

وإنه هو كذلك - بالبداهة - أعظم من عرّف ما فى خزائن الغيب لصانع هذا العالم - تلك الخزائن الملأى بأبدع المعجزات وأثمن الجواهر - وهو أفضل من أعلن عنها ووصفها، فلبّى إرادته سبحانه فى إظهار تلك الكنوز المخفية، وإعلام كمالاته بها.

وإنه هو كذلك - بالبداهة - أكمل مرشد بالقرآن الكريم للجن والإنس، بل للروحانيين والملائكة، وأعظم من بيّن معانى آثار صانع هذه الكائنات التى زيّنها بأروع زينة، ومكّن فيها أرباب الشعور من مخلوقاته، لينعموا بالنظر والتفكر والاعتبار، فلبّى إرادته سبحانه فى بيان معانى تلك الآثار، وتقدير قيمتها لأهل الفكر والمشاهدة بمقتضى الحكمة.

وإنه هو كذلك - بالبداهة - أحسن من كشف بحقائق القرآن عن مغزى القصد من تحولات الكائنات والغاية منها، وأكمل من حلّ اللغز المحير فى الموجودات. وهو أسئلة ثلاثة معضلة : من أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ فلبّى إرادته سبحانه فى كشف ذلك الطلسم المغلق، لذوى الشعور بوساطة مبعوث.

وإنه هو كذلك - بالبداهة - أكمل من بيّن المقاصد الإلهية بالقرآن الكريم وأحسن من وضح السبيل إلى مرضاة رب العالمين، فلبّى إرادته سبحانه فى تعريف ما يريده من ذوى الشعور، وما يرضاه لهم بوساطة مبعوث، بعدما عرّف نفسه لهم بجميع مصنوعاته البديعة، وحببها إليهم بما أسبغ عليهم من نعمه الغالية.

وإنه هو كذلك - بالبداهة - أعظم من استوفى مهمة الرسالة بالقرآن الكريم وأدّاها أفضل أداء فى أسمى مرتبة وأبلغ صورة وأحسن طراز، فلبّى إرادة رب العالمين فى صرف وجه هذا الإنسان من الكثرة إلى الوحدة، ومن الفانى إلى الباقى، بوساطة مرشد ذلك الإنسان الذى خلقه سبحانه ثمرة للعالم، ووهب له من الاستعدادات ما يسع العالم كله، وهيأه للعبودية الكلية، وابتلاه بمشاعر متوجهة إلى الكثرة والدنيا.

خامسها : إنه ﷺ قد بعث بشريعة مطهرة، وبدين فطرى، وبعبودية خالصة، وبدعاء خاشع، وبدعوة شاملة، وبإيمان راسخ، لا مثيل لما بعث به ولن يكون، وما وجد أكمل منه، ولن يوجد.

لأن "الشريعة" التى تجلّت من أمّى ﷺ وأدارت خمس البشرية على اختلافها منذ أربعة عشر قرناً، إدارة قائمة على الحق والعدل، بقوانينها الدقيقة الغزيرة، لا تقبل مثيلاً أبداً.

وكذا "الإسلام" الذى صدر من أفعال من هو أمّى ﷺ ومن أقواله، ومن أحواله، هو رائد ثلاثمائة مليون من البشر، ومرجعهم فى كل عصر، ومعلم لعقولهم ومرشد لها، ومنوّر لقلوبهم ومهذّب لها، ومربٍ لنفوسهم ومزكٍ لها، ومدار لانكشاف أرواحهم ومعدن لسموها، لم يأت ولن يأتى له مثيل.

وكذا تفوقه ﷺ فى جميع أنواع "العبادات" التى يتضمنها دينه، وتقواه العظيمة أكثر من أى أحد كان، وخشيته الشديدة من الله، ومجاهدته المتواصلة ورعايته الفائقة لأدق أسرار العبودية، حتى فى أشد الأحوال والظروف. وقيامه ﷺ بتلك العبودية الخالصة، دون أن يقلد أحداً، وبكل معانيها مبتدئاً، وبأكمل صورة، موحداً الابتداء والانتهاء، لا شك لم يُرَ ولن يُرَى لها مثيل.

وكذا فإنه يصف، بالجوشن الكبير - الذى هو واحد من آلاف أدعيته ومناجاته - يصف ربه بمعرفة ربانية سامية، لم يبلغ العارفون والأولياء جميعاً تلك

المرتبة من المعرفة، ولا درجة ذلك الوصف منذ القدم مع تلاحق الأفكار .. مما يظهر أنه لا مثيل له فى "الدعاء". ومن ينظر إلى الإيضاح المختصر لفقرة واحدة من بين تسع وتسعين فقرة للجوشن الكبير، وذلك فى مستهل رسالة "المناجاة" لا يسعه إلا القول أنه لا مثيل لهذا الدعاء الرائع (الجوشن) الذى يمثل قمة المعرفة الربانية.

وكذا فإن إظهاره فى "تبليغ الرسالة" وفى دعوته الناس إلى الحق، من الصلابة والثبات والشجاعة، ما لا يقاربها أحد، فلم يداخله – ولو بمقدار ذرة – أى أثر للتردد، ولا ساوره القلق قط، ولم ينل الخوف منه شيئاً، رغم معاداة الدول الكبرى والأديان العظمى له – وحتى قومه وقبيلته وعمه ناصبوه العداء الشديد – فتحدى وحده الدنيا بأسرها، ونصره الله وأعزّه، فكلل هامة الدنيا بتاج الإسلام .. فمَن مثل محمد ﷺ فى تبليغ رسالات الله ؟ ..

وكذا حمله "إيماناً قوياً راسخاً، ويقيناً جازماً خارقاً، وانكشافاً للفطرة معجزاً، واعتقاداً سامياً ملأ العالم نوراً" فلم تتمكن أن تؤثر فيه جميع الأفكار والعقائد وحكمة الحكماء، وعلوم الرؤساء الروحانيين السائدة فى ذلك العصر، ولو بشبهة، أو بتردد، أو بضعف، أو بوسوسة. نعم، لم تتمكن أن تؤثر لا فى يقينه، ولا فى اعتقاده ولا فى اعتماده على الله، ولا فى اطمئنانه إليه، مع معارضتها له ومخالفتها إياه، وإنكارها عليه. زد على هذا استلهام جميع الذين ترقوا فى المعنويات والمراتب الإيمانية من أهل الولاية والصلاح، وفى مقدمتهم الصحابة الكرام، واستفاضتهم دوماً من مرتبته الإيمانية، ورؤيتهم له أنه فى أسمى الدرجات والمراتب .. كل ذلك يظهر – بداهة – أن إيمانه ﷺ لا مثيل له أيضاً.

سادسها : إن الجمع العظيم الذين يطلق عليهم (الآل والأصحاب) الذين هم أشهر بنى البشر – بعد الأنبياء – فراسةً وأكثرهم درايةً، وأسماهم كمالات، وأفضلهم منزلة، وأعلاهم صيتاً، وأشدهم اعتصاماً بالدين، وأحدّهم نظراً .. إن تحرى هؤلاء وتفتيشهم وتدقيقهم لجميع ما خفى وما ظهر، من أحوال هذا النبى

الكريم ﷺ وأفكاره وتصرفاته، بحثاً بكمال اللهفة والشوق، وبغاية الدقة، وبمنتهى الجدية، ثم تصديقهم بالاتفاق والإجماع أنه ﷺ هو أصدق من في الدنيا حديثاً، وأسماهم مكانة، وأشدهم اعتصاماً بالحق والحقيقة. فتصديقهم هذا الذى لا يتزعزع، مع ما يملكون من إيمان عميق، إنما هو دليل باهر كدلالة النهار على ضياء الشمس.

إن وصول آلاف الأولياء إلى الحق والحقيقة، وما نالوا من الكمالات والكرامات، وما فازوا من الكشفيات والمشاهدات، ليس إلا بالاقتداء بهدى دساتير هذا النبى ﷺ، وبتربيته، وباتباعه، وتعقب أثره .. فمثلما أنهم يدلّون جميعاً على الوحدانية فهم يشهدون بالإجماع والاتفاق على صدق هذا النبى الكريم ﷺ - أستاذهم وإمامهم - وعلى أحقية رسالته. وإن مشاهدة هؤلاء قسماً مما أخبر به ﷺ من عالم الغيب بنور الولاية واعتقادهم به وتصديقهم لجميع ما أخبر به بنور الإيمان - إما بعلم اليقين أو بعين اليقين أو بحق اليقين - إنما تُظهر ظهوراً كالشمس: ما أصدق مرشدهم الأعظم، وما أحق رائدهم الأكبر ﷺ.

إن ملايين العلماء المدققين الأصفياء، والمحققين الصديقين، ودهاة الحكماء المؤمنين، ممن بلغوا أعلى المراتب، بفضل ما درسوا وتتلمذوا على ما جاء به هذا النبى الكريم ﷺ - مع كونه أمياً - من الحقائق القدسية، وما نبع منها من العلوم العالية، وما كشفت عنه من المعرفة الإلهية .. إن هؤلاء جميعاً مثلما يثبتون الوحدانية، التى هى الأساس لدعوته ﷺ ويصدقّونها، متفقين ببراهينهم القاطعة، فإنهم يتفقون كذلك ويشهدون على صدق هذا المعلم الأكبر، وصواب هذا الأستاذ الأعظم وعلى أحقية كلامه ﷺ. فشهادتهم هذه حجة واضحة كالنهار على صدقه وصواب رسالته، وما رسائل النور بأجزائها التى تزيد على المائة مثلاً، إلا برهان واحد فقط على صدق وصواب هذا النبى الحبيب ﷺ.

سابعها : ما دام هناك وراء الحجاب من يُشهر كمال كونه بديعاً متقناً، بمصنوعاته هذه؛ ذات الإتقان والحكمة .. ويعرف نفسه ويوددها، بمخلوقاته غير

المحدودة ذات الزينة والجمال .. ويُوجب الشكر والحمد له، بنعمه التى لا تحصى ذات اللذة والنفاسة .. ويشوّق الخلق إلى العبادة نحو ربوبيته، بعبودية تتسم بالحب والامتنان والشكر إزاء هذه التربية، والإعاشة العامة، ذات الشفقة والحماية (حتى أنه يهيئ أطعمة وضيافات ربانية، ما تُطَمئن أدق أذواق الأفواه، وجميع أنواع الاشتهاء) .. ويُدين الخلق إلى الإيمان والتسليم، والانقياد والطاعة نحو ألوهيته، التى يظهرها بتبديل المواسم، وتكوير الليل على النهار واختلافهما، وأمثالها من التصرفات العظيمة، والإجراءات الجليلة، والفعالية المدهشة والخلاقية الحكيمة .. ويُظهر عدالته وانتصافه بحمايته دوماً البرّ والأبرار، وإزالته الشر والأشرار، ومحقه الظالمين والمكذبين، وإهلاكهم بنوازل سماوية.

فلا جرم، أن أحب مخلوق لدى ذلك المستتر بالغيب، وأصدق عبد له هو من كان عاملاً خالصاً لمقاصده المذكورة آنفاً، ومن يحل السر الأعظم فى خلق الكون ويكشف لغزه، ومن يسعى دوماً باسم خالقه، ويستمد القوة منه، ويستعين به وحده فى كل شيء، فينال المدد والتوفيق منه سبحانه. ومن ذا يكون هذا غير محمد القرشى ﷺ.

ثامنها : إن إجماع الأنبياء عليهم السلام، واتفاقهم على الحقائق الإيمانية نفسها، هو دليل قاطع على وجود الله سبحانه وعلى وحدانيته، وهو شهادة صادقة أيضاً على صدق هذا النبى ﷺ وعلى رسالته، ذلك لأن كل ما يدل على صدق نبوة أولئك الأنبياء عليهم السلام، وكل ما هو مدارٌ لنبوتهم من الصفات القدسية والمعجزات، والمهام التى اضطلعوا بها، يوجد مثلها وبأكمل منها فيه ﷺ، كما هو مصدّق تاريخاً. فأولئك الأنبياء عليهم السلام قد أخبروا بلسان المقال - أى بالتوراة والإنجيل والزبور والصحف التى بين أيديهم - بمجئ هذه الذات المباركة، وبشروا الناس بقدومه ﷺ (حتى أن أكثر من عشرين إشارة واضحة ظاهرة من الإشارات

المبشرة لتلك الكتب المقدسة، قد بُينت بياناً جلياً وأثبتت فى رسالة المعجزات الأحمدية) فكما أنهم قد بشروا بمجيئه ﷺ فإنهم يصدقونه ﷺ بلسان حالهم – أى بنبوتهم وبمعجزاتهم – ويختمون بالتأييد على صدق دعوته، إذ هو السابق الأكمل فى مهمة النبوة والدعوة إلى الله.

فمثل هذا النبى الكريم ﷺ الذى يضاف إلى كفة حسناته فى الميزان مثل ما قامت به أمته من حسنات بسر "السبب كالفاعل" ... والذى تضاف إلى كمالاته المعنوية الصلوات التى تؤديها الأمة جميعاً .. والذى يُفاض عليه من الرحمة الإلهية ومحبتها ما لا يحدهما حدود، فضلاً عما يناله من ثمرات ما أداه من مهمة رسالته من ثواب معنوى عظيم .. نعم، فمثل هذا النبى العظيم ﷺ لا ريب أن ذهابه إلى الجنة، وإلى سدرة المنتهى، وإلى العرش الأعظم، فيكون قاب قوسين أو أدنى، إنما هو العين الحق، وذات الحقيقة ومحض الحكمة.

فمن الذى جعل السموات والأرض ترن بصدى "سبحان الله .. ما شاء الله .. الله أكبر" من أذكار الإعجاب والتسبيح والتكبير، تجاه ما يرصع المصنوعات من مزايا تزينها ومحاسن تجملها، ولطائف وكمالات تنورها؟ ومن الذى هزّ الكائنات بنغمات القرآن الكريم، وجعل البر والبحر منجذباً فى شوق عارم من الاستحسان والتقدير، فى تفكر وإعلان وتشهير، فى ذكر وتهليل؟ من ذا يكون تلك الذات المباركة غير محمد الأمين ﷺ ؟.

الفضل ما شهد به الأعداء :

نذكر هنا عدة مقتطفات منتقاة من رسائل النور، تبين كيف شهد الأعداء قبل الأصدقاء لعظمة سيدنا محمد ﷺ وعظمة الشريعة التى بعث بها ودورها فى تطور البشرية.

الشهادة الأولى :

ذكرت جريدة إسلامية تهتم بأحوال المسلمين: بأن رجال السياسة المشهورين والحقوقيين المهتمين بالحياة الاجتماعية، قد عقدوا مؤتمراً فى أوربا سنة ١٩٢٧، فتكلم فى هذا المؤتمر فلاسفة أجانب حول الشريعة الإسلامية، ندرج أدناه نص كلامهم بالحرف الواحد، فتصبح لدينا (٤٥) شهادة صادقة حول أحقية الشريعة، وذلك بعد إضافة هاتين الشهادتين إلى تلك الشهادات الصادقة البالغة (٤٣) شهادة، والمذكورة فى ختام رسائل النور. والفضل ما شهدت به الأعداء : فقد اعترف حتى علماء الغرب بسمو مبادئ الإسلام وصلاحها للعالم .. وقال عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا الأستاذ **شبول** فى مؤتمر الحقوقيين المنعقد فى سنة ١٩٢٧ : [إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ إليها، إذ أنه رغم أميته، استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتى بتشريع، سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قيمته بعد ألفى عام].

وقال برناردشو :

لقد كان دين محمد ﷺ موضع تقديرى السامى دائماً، لما ينطوى عليه من حيوية مدهشة، لأنه على ما يلوح لى : هو الدين الوحيد الذى له ملكة الهضم لأطوار الحياة المختلفة، والذى يستطيع لذلك أن يجذب إليه كل جيل من الناس، وأرى واجباً أن يدعى محمد ﷺ **منقذ الإنسانية** .. وأعتقد أن رجلاً مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث ينجح فى حل مشكلاته، وأحلّ فى العالم السلامة والسعادة (يعنى المسالمة والصلح العمومى) وما أشد حاجة العالم اليوم إليها[1].

الشهادة الثانية :

إن مستر **كارلايل** أحد مشاهير فلاسفة القرن التاسع عشر، وأشهر فيلسوف من القارة الأمريكية، يلفت أنظار الفلاسفة وعلماء النصرانية بقوله :

---

(١) المكتوبات - ص ٢٧٩.

لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة، والنحل الباطلة، فابتلعها .. وحق له أن يبتلعها، لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة. وما كاد يظهر الإسلام، حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية، وكل ما لم يكن بحق، فإنها حطب ميت، أكلته نار الإسلام فذهب، والنار لم تذهب. ويزيد مستر **كارلايل**، فيقول بحق الرسول ﷺ : هو الرجل العظيم، الذى علمه الله العلم والحكمة، فوجب علينا أن نصغى إليه قبل كل شيء. ويقول أيضاً : إن كنت فى ريب من حقائق الإسلام، فالأولى بك أن ترتاب فى البديهيات والضروريات القطعية، لأن الإسلام من أبده الحقائق، وأشهدها ضرورة.

الشهادة الثالثة :

هو الأمير بسمارك الذى يعتبر من أشهر رجال الفكر فى تاريخ أوروبا الحديث، ومن مشاهير السياسيين الألمان (١٨١٥-١٨٩٨) وأحد الذين حققوا الوحدة الألمانية، وجعلوها فى مقدمة الدول فى القرن التاسع عشر، يقول هذا الفيلسوف : لقد درست الكتب السماوية بإمعان، فلم أجد فيها الحكمة الحقيقية التى تكفل سعادة البشرية، وذلك للتحريف الذى حصل فيها .. ولكنى وجدت قرآن محمد ﷺ يعلو على سائر الكتب، حيث وجدت فى كل كلمة منه حكمة .. وليس هناك كتاب يحقق سعادة البشرية مثله. ولا يمكن أن يكون كتاب كهذا من كلام البشر، فالذين يدعون أن هذه الأقوال : أقوال محمد ﷺ يكابرون الحق، وينكرون الضروريات العلمية، أى أن كون القرآن كلام الله أمر بديهى[1].

ولا نملك فى هذا المقام إلا أن نردد قول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) صيقل الإسلام - ص ٤٩٧، ٤٩٨.

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾

(الفتح : ٢٨-٢٩)

ونحمد الله ساجدين له شاكرين على بعثته للأنبياء على مر السنين، وأن اصطفانا بخير دين .. ونصلي ونسلم على هذا النبي الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، ذلك الحبيب الذي هو سيد الكونين، وفخر العالمين، وحياة الدارين، ووسيلة السعادتين، ورسول الثقلين .. وعلى آله وصحبه أجمعين .. وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين .. آمين .. آمين .. آمين.

الفصل الثانى

معجزات الأنبياء منارات هدى للإنسانية

إن هذا الفصل يبين بوضوح مهمة الأنبياء عليهم السلام فى انتشال الناس من وهدة الضلال، إلى مدارج الأنوار مع المصطفين الأخيار، ومن هوة التخلف المعنوى والمادى، ليحلقوا فى أعلى الآفاق، فى ملكوت الأرض والسماوات.

فالأنبياء هم أئمة الهدى على مدى العصور والأجيال، وهم الرابطة التى تربط الناس بخالقهم وتعرفه لهم، وتحببه إليهم .. وهم يتشرفون بتلك المعرفة وذلك الحب شرفاً لا حدود له، لأنهم بذلك يحققون أسمى درجات الإنسانية النبيلة، التى تتشوق أرواحها إلى النور الوضّاء، وكل معانى الخير والوفاء.

ونترك المجال لإمامنا الحبيب بديع الزمان وكل زمان، ليغذى عقولنا وأرواحنا بروائع الكلم، التى تدل على فضائل الحنّان المنّان[1].

الأنبياء رواد البشرية فى تقدمها المعنوى والمادى :

يبين القرآن الكريم أن الأنبياء عليهم السلام قد بُعثوا إلى المجتمعات الإنسانية ليكونوا لهم أئمة الهدى، يُقتدى بهم فى رقيهم المعنوى. ويبين فى الوقت نفسه أن الله قد وضع بيد كل منهم معجزة مادية، ونَصَبهم روّاداً للبشرية، وأساتذة لها فى تقدمها المادى أيضاً. أى أنه يأمر بالاقتداء بهم، واتباعهم اتباعاً كاملاً فى الأمور المادية والمعنوية؛ إذ كما يحض القرآن الكريم الإنسان على الاستزادة من نور الخصال الحميدة، التى يتحلى بها الأنبياء عليهم السلام، وذلك عند بحثه عن كمالاتهم المعنوية، فإنه عند بحثه عن معجزاتهم المادية أيضاً، يومئ إلى إثارة شوق

---

(١) هذا الفصل من الكلمات – ص ٢٧٧ : ٢٩٦.

الإنسان، ليقوم بتقليد تلك المعجزات التى فى أيديهم، ويشـير إلـى حضّه علـى بلـوغ نظائرها.

بل يصح القول : إن يد المعجزة هى التى أهدت إلى البشرية الكمال المادى وخوارقه لأول مرة، مثلما أهدت إليها الكمـال المعنـوى .. فدونك سفينة نـوح عليـه السلام، وهى إحدى معجزاته، وساعة يوسف عليـه السـلام، وهـى إحـدى معجزاتـه، فقد قدمتهما يدُ المعجزة لأول مرة هدية ثمينة إلى البشرية.

وهناك إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهـى اتخـاذ أغلب الصنـاع نبيـاً مـن الأنبياء رائداً لصنعتهم وقطباً لمهنتهم. فالملاحون – مثلاً – اتخذوا سيدنا نوحاً عليـه السلام رائدهم .. والساعتيون اتخذوا سيدنا يوسف عليه السلام إمامهم .. والخياطون اتخذوا سيدنا إدريس عليه السلام مرشدهم ..

ولما كان العلماء المحققون من أهل البلاغـة، قد اتفقوا جميعـاً أن لكـل آيـة كريمة وجوهاً عدة للإرشاد، وجهات كثيرة للهداية .. فلا يمكـن إذاً أن تكـون أسـطع الآيات، وهى آيات المعجزات، سرداً تاريخيـاً، بـل لابـد أنهـا تتضمـن أيضـاً معـانى بليغة جمة للإرشاد والهداية.

نعم، إن القرآن الكريم بإيراده معجزات الأنبياء، إنما يخط الحـدود النهائيـة لأقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان فى مجال العلوم والصناعات، ويشير بها إلـى أبعد نهاياتها، وغاية ما يمكن أن تحققـه البشـرية مـن أهـداف، فهـو بهـذا يعيّن أبعـد الأهداف النهائية لها ويحددها، ومن بعد ذلك يحث البشرية ويحضّها على بلـوغ تلـك الغاية، ويسوقها إليهـا. إذ كمـا أن المـاضى مسـتودع بـذور المسـتقبل ومـرآة تعكـس شؤونه، فالمستقبل أيضاً حصيلة بذور الماضى ومرآة آماله.

وسنبين بضعة نماذج مثالاً، من ذلك النبع الفياض الواسع :

معجزة سيدنا إبراهيم وتطور علم الطبيعة والكيمياء :

قوله تعالى : ﴿قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم﴾

(الأنبياء : ٦٩)

هذه الآية الكريمة تبين معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وفيها ثلاث إشارات لطيفة :

أولها : النار – كسائر الأسباب – ليس أمرها بيدها، فلا تعمل كيفما تشاء حسب هواها وبلا بصيرة، بل تقوم بمهمتها وفق أمر يُفرض عليها. فلم تحرق سيدنا إبراهيم لأنها أُمرت بعدم الحرق.

ثانيتها : أن للنار درجة تحرق ببرودتها، أى تؤثر كالاحتراق. فالله سبحانه يخاطب البرودة بلفظة : "سلاماً" بأن لا تحرقى أنتِ كذلك إبراهيم، كما لم تحرقه الحرارة. أى أن النار فى تلك الدرجة تؤثر ببرودتها كأنها تحرق، فهى نار وهى برد.

نعم إن النار – كما فى علم الطبيعيات – لها درجات متفاوتة، منها درجة على صورة نار بيضاء لا تنشر حرارتها، بل تكسب مما حولها من الحرارة، فتجمد بهذه البرودة ما حولها من السوائل، وكأنها تحرق ببرودتها. وهكذا الزمهرير لون من ألوان النار تحرق ببرودتها، فوجوده إذن ضرورى فى جهنم التى تضم جميع درجات النار وجميع أنواعها.

ثالثتها : مثلما الإيمان الذى هو (مادة معنوية) يمنع مفعول نار جهنم، وينجي المؤمنين منها. وكما أن الإسلام درع واقٍ وحصن حصين من النار، كذلك هناك (مادة مادية) تمنع تأثير نار الدنيا، وهى درع أمانها، لأن الله سبحانه يجرى

إجراءاته فى هذه الدنيا - التى هى دار الحكمة - تحت ستار الأسباب، وذلك بمقتضى اسمه (الحكيم)، لذا لم تحرق النار جسم سيدنا إبراهيم عليه السلام، مثلما لم تحرق ثيابه وملابسه أيضاً.

فهذه الآية ترمز إلى هذا المعنى :

"يا ملة إبراهيم! اقتدوا بإبراهيم! كى يكون لباسكم لباس التقوى وهو لباس إبراهيم، وليكون حصناً مانعاً ودرعاً واقياً فى الدنيا والآخرة، تجاه عدوكم الأكبر النار. فلقد خبأ سبحانه لكم مواداً فى الأرض تحفظكم من شر النار، كما يقيكم لباس التقوى والإيمان الذى ألبستموه أرواحكم، شر نار جهنم .. فهلموا واكتشفوا هذه المواد المانعة من الحرارة، واستخرجوها من باطن الأرض والبسوها".

وهكذا وجد الإنسان حصيلة بحوثه واكتشافاته مادة لا تحرقها النار، بل تقاومها، فيمكنه أن يصنع منها لباساً وثياباً.

فقارن هذه الآية الكريمة، وقس مدى سموها وعلوها على اكتشاف الإنسان للمادة المضادة للنار، واعلم كيف أنها تدل على حلة قشيبة نسجت فى مصنع (حنيفاً مسلماً) لا تتمزق ولا تخلق، وتبقى محتفظة بجمالها وبهائها إلى الأبد.

سيدنا موسى رائد علم التنقيب :

قال تعالى : ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ..﴾
(البقرة : ٦٠)

هذه الآية الكريمة تبين معجزة من معجزات سيدنا موسى عليه السلام، وهى تشير إلى أنه يمكن الاستفادة من خزائن الرحمة المدفونة تحت الأرض بآلات بسيطة، بل يمكن تفجير الماء، وهو ينبوع الحياة، من أرض صلدة ميتة كالحجر، بوساطة عصا.

فهذه الآية تخاطب البشرية بهذا المعنى : يمكنكم أن تجدوا الماء الذى هو ألف فيض من فيوضات الرحمة الإلهية، بوساطة عصا، فاسعوا واعملوا بجد لتجدوه وتكتشفوه.

فالله سبحانه يخاطب الإنسان بالمعنى الرمزى لهذه الآية :

"ما دمتُ أسلّم بيد عبد يعتمد علىّ ويثق بى عصا، يتمكن بها أن يفجّر الماء أينما شاء. فأنت أيها الإنسان : إن اعتمدت على قوانين رحمتى، يمكنك أيضاً أن تخترع آلةً شبيهة بتلك العصا، أو نظيرة لها. فهيا اسع لتجد تلك الآلة".

سيدنا عيسى رائد علم الطب :

فى قوله جل شأنه : ﴿وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ..﴾ (آل عمران : ٤٩)

نجد أن القرآن الكريم إذ يحث البشرية صراحة على اتباع الأخلاق النبوية السامية، التى يتحلى بها سيدنا عيسى عليه السلام، فهو يرغب فيها ويحض عليها، رمزاً إلى النظر إلى ما بين يديه من مهنة مقدسة، وطب ربانى عظيم.

فهذه الآية الكريمة تشير إلى :

"أنه يمكن أن يُعثر على دواء يشفى أشد الأمراض المزمنة والعلل المستعصية، فلا تيأس أيها الإنسان، ولا تقنط أيها المبتلى المصاب، فكل داء مهما كان له دواء، وعلاجه ممكن، فابحث عنه، وجدّه واكتشفه، بل حتى يمكن معالجة الموت نفسه بلون من ألوان الحياة الموقتة".

فالله سبحانه يقول بالمعنى الإشارى لهذه الآية الكريمة :

"لقد وهبتُ لعبد من عبادى تَركَ الدنيا لأجلى، وعافها فى سبيلى، هديتين: إحداهما دواء للأسقام المعنوية، والأخرى علاج للأمراض المادية. فالقلوب الميتة تبعث بنور

الهداية، والمرضى الذين هم بحكم الأموات يجدون شفاءهم بنفث منه ونفخ، فيبرأون به. وأنت أيها الإنسان! بوسعك أن تجد فى صيدلية حكمتى دواء لكل داء يصيبك، فاسعَ فى هذه السبيل، واكتشف ذلك الدواء فإنك لا محالة واجده وظافر به.

سيدنا سليمان رائد علم الطيران والاتصالات :

قوله تعالى : ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر﴾

(سبأ : ١٢)

هذه الآية الكريمة تبين معجزة من معجزات سيدنا سليمان عليه السلام .. وهى تسخير الريح له، أى أنه قد قطع فى الهواء : ما يقطع فى شهرين، فى يوم واحد.

فالآية تشير إلى أن الطريق مفتوح أمام البشر، لقطع مثل هذه المسافة فى الهواء.

فكأن الله سبحانه وتعالى يقول فى معنى هذه الآية الكريمة :

"إن عبداً من عبادى ترك هوى نفسه، فحملته فوق متون الهواء. وأنت أيها الإنسان! إن نبذت كسل النفس وتركته، واستفدت جيداً من قوانين سنتى الجارية فى الكون، يمكنك أيضاً أن تمتطى صهوة الهواء".

أما قوله جلَّ شأنه : ﴿قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده ..﴾ (النمل : ٤٠)

فهذه الآية تشير إلى أن إحضار الأشياء من مسافات بعيدة – عيناً أو صورة – ممكن، وذلك بدلالتها على تلك الحادثة الخارقة التى وقعت فى ديوان سيدنا سليمان عليه السلام : عندما قال أحد وزرائه الذى أوتى علماً غزيراً فى "علم التحضير" : أنا آتيك بعرش بلقيس.

ولقد آتى الله سبحانه سيدنا سليمان عليه السلام المُلك والنبوة معاً، وأكرمه بمعجزة يتمكن بها من الاطلاع المباشر بنفسه، وبلا تكلف ولا صعوبة، على أحوال رعاياه، ومشاهدة أوضاعهم، وسماع مظالمهم. فكانت هذه المعجزة مناط عصمته وصونه من الشطط فى أمور الرعية. وهى وسيلة قوية لبسط راية العدالة على أرجاء المملكة.

فهذه الآية تشير إشارة رائعة إلى إحضار الصور والأصوات من مسافات بعيدة. فالآية تخاطب :

"أيها الحكام! ويا من تسلمتم أمر البلاد! إن كنتم تريدون أن تسود العدالة أنحاء مملكتكم، فاقتدوا بسليمان – عليه السلام – واسعوا مثله إلى مشاهدة ما يجرى فى الأرض كافة، ومعرفة ما يحدث فى جميع أرجائها. فالحاكم العادل الذى يتطلع إلى بسط راية العدالة فى ربوع البلاد، والسلطان الذى يرعى شؤون أبناء مملكته، ويشفق عليهم، لا يصل إلى مبتغاه إلا إذا استطاع الاطلاع – متى شاء – على أقطار مملكته. وعندئذ تعم العدالة حقاً، وينقذ نفسه من المحاسبة والتبعات المعنوية.

وهكذا نرى كيف تومئ الآية الكريمة المتصدرة لهذا المثال إلى إثارة همة الإنسان، وبعث اهتماماته لاكتشاف وسيلة يستطيع بها إحضار الصور والأصوات من أبعد الأماكن وأقصاها، ضمن أدق الصناعات البشرية.

معجزات الأنبياء تفيد فى تسخير الجان :

قال تعالى :

﴿وآخرين مقرنين فى الأصفاد﴾

(ص : ٣٨)

﴿ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾

(الأنبياء : ٨٢)

هذه الآيات الكريمة تفيد تسخير سيدنا سليمان عليه السلام الجن والشياطين والأرواح الخبيثة، ومنعه شرورهم، واستخدامهم فى أمور نافعة. فالآيات تقول :

إن الجن الذين يلون الإنسان فى الأهمية فى سكنى الأرض من ذوى الشعور، يمكنهم أن يصبحوا خداماً للإنسان، ويمكن إيجاد علاقة ولقاء معهم، بل يمكن للشياطين أن يضعوا عداءهم مع الإنسان ويخدموه مضطرين، كما سخّرهم الله سبحانه وتعالى لعبدٍ من عباده المنقادين لأوامره.

بمعنى أن الله سبحانه يخاطب الإنسان بالمعنى الرمزى لهذه الآيات :

"أيها الإنسان! إنى أسخّر الجن والشياطين وأشرارهم لعبدٍ قد أطاعنى، وأجعلهم منقادين إليه مسخرين له .. فأنت إن سخّرت نفسك لأمرى وأطعتنى، قد تُسخّر لك موجودات كثيرة، بل حتى الجن والشياطين".

ولكن ليس كما عليه الأمر فى الوقت الحاضر، حيث أصبح المشتغلون بهذه الأمور موضع استهزاء، ألعوبة بيد الجن. وغدوا مسخّرين للشياطين والأرواح الخبيثة .. وإنما يكون تسخير أولئك بأسرار القرآن الكريم، مع النجاة من شرورهم.

وإن الآيات المشيرة إلى جلب سيدنا سليمان – عليه السلام – للعفاريت وتسخيرهم له. هذه الآيات الكريمة مع إشارتها إلى تمثل الروحانيات، فهى تشير إلى تحضير الأرواح أيضاً. غير أن تحضير الأرواح الطيبة – المشار إليه فى الآيات – ليس هو بالشكل الذى يقوم به المعاصرون، من إحضار الأرواح إلى مواضع لهوهم وأماكن ملاعبهم، والذى هو هزل رخيص، واستخفاف لا يليق بتلك الأرواح الموقرة الجادة، التى تعمر عالماً كله جدّ لا هزل فيه، بل يمكن تحضير الأرواح بمثل ما قام به أولياء صالحون لأمر جاد، ولقصد نبيل هادف – من أمثال محيى الدين بن عربى – الذين كانوا يقابلون تلك الأرواح الطيبة متى شاءوا، فأصبحوا هم منجذبين إليها ومنجلبين لها ومرتبطين معها، ومن ثم الذهاب إلى مواضعها، والتقرب إلى عالمها

والاستفادة من روحانياتها، فهذا هو الذى تشير إليه الآيات الكريمة، وتشعر فى إشارتها حضاً وتشويقاً للإنسان، وتخط أقصى الحدود النهائية لمثل هذه العلوم والمهارات الخفية، وتعرض أجمل صوره وأفضلها.

سيدنا داود وصدى الصوت :

قال تعالى :

﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق﴾ (ص : ١٨)
﴿يا جبال أوبى معه والطير﴾ (سبأ : ١٠)

هذه الآيات الكريمة التى تذكر معجزات سيدنا داود عليه السلام : تدل على أن الله سبحانه قد منح تسبيحاته وأذكاره، من القوة العظيمة والصوت الرخيم والأداء الجميل، ما جعل الجبال فى وجدٍ وشوق، وكأنها حاكٍ عظيم تردد تسبيحاتٍ وأذكاراً. أو كأنها إنسان ضخم يسبح فى حلقة ذكر حول رئيس الحلقة.

– أتُراك هذه حقيقة ؟ وهل يمكن أن يحدث هذا فعلاً ؟!

– نعم ! إنها لحقيقة قاطعة، أليس كل جبل ذى كهوف يمكن أن يتكلم مع كل إنسان بلسانه، ويردد كالببغاء ما يذكره ؟ فإن قلت "الحمد لله" أمام جبل، فهو يقول أيضاً : "الحمد لله" وذلك برجع الصدى .. فما دام الله سبحانه وتعالى قد وهب هذه القابلية للجبال، فيمكن إذاً أن تتكشف هذه القابلية وتنبسط أكثر من هذا.

وحيث أن الله سبحانه قد خص سيدنا داود عليه السلام بخلافة الأرض فضلاً عن رسالته، فقد كشف بذرة تلك القابلية لديه، ونماها وبسطها بسطاً معجزاً عنده، بما يلائم شؤون الرسالة الواسعة والحاكمية العظيمة، حتى غدت الجبال الشم الرواسى منقادة إليه، كأى جندى مطيع لأمره، وكأى صانع أمين لديه، وكأى مريد

خاشع لذكره. فأصبحت تلك الجبال تسبح بحمد الخالق العظيم جلّ جلاله، بلسانه عليه السلام وبأمره. فما كان سيدنا داود يذكر ويسبّح، إلا والجبال تردد ما يذكره.

نعم، إن القائد فى الجيش يستطيع أن يجعل جنوده المنتشرين على الجبال يرددون : "الله أكبر" بما لديه من وسائل الاتصال والمخابرات، حتى كأن تلك الجبال هى التى تتكلم وتهلل وتكبر! فلئن كان قائداً من الإنس يستطيع أن يستنطق "مجازياً" الجبال بلسان ساكنيها، فكيف بقائد مهيب لله سبحانه وتعالى ؟ ألا يستطيع أن يجعل تلك الجبال تنطق نطقاً "حقيقياً" وتسبح تسبيحاً حقيقياً ؟. هذا فضلاً عن أننا قد بيّنا فى "الكلمات" السابقة أن لكل جبل شخصية معنوية خاصة به، وله تسبيح خاص ملائم له، وله عبادة مخصوصة لائقة به. فمثلما يسبّح كل جبل برجع الصدى بأصوات البشر، فإن له تسبيحات للخالق الجليل بألسنته الخاصة.

سيدنا داود وسليمان رائدا علم صناعات الحديد والسبائك :

قال تعالى :

﴿وألنّا له الحديد﴾ (سبأ : ١٠)

﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ (ص : ٢٠)

هاتان الآيتان تخصان معجزة سيدنا داود عليه السلام. والآية الكريمة ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ (سبأ : ١٢) تخص معجزة سيدنا سليمان عليه السلام. فهذه الآية تشير إلى :

أن تليين الحديد نعمة إلهية عظمى، إذ يبين الله به فضل نبى عظيم. فتليين الحديد وجعله كالعجين، وإذابة النحاس وإيجاد المعادن وكشفها، هو أصل جميع الصناعات البشرية، وأساسها. وهو أم التقدم الحضارى من هذا الجانب ومعدنه.

فهذه الآية تشير إلى النعمة الإلهية العظمى فى تليين الحديد كالعجين، وتحويله أسلاكاً رفيعة وإسالة النحاس، واللذان هما محور معظم الصناعات العامة،

حيث وهبها البارى الجليل على صورة معجزة عظمى لرسول عظيم، وخليفة للأرض عظيم. فما دام سبحانه قد كرم من هو رسولٌ وخليفة معاً، فوهب للسانه الحكمة وفصل الخطاب، وسلّم إلى يده الصنعة البارعة، وهو يحض البشرية على الاقتداء بما وهب للسانه حضاً صريحاً، فلابد أن هناك إشارة ترغّب وتحضّ على ما فى يده من صنعة ومهارة.

فسبحانه يقول بالمعنى الإشارى لهذه الآية الكريمة :

"يا بنى آدم! لقد آتيت عبداً من عبادى أطاع أوامرى، وخضع لما كلفته به، آتيت لسانه فصل الخطاب، وملأتُ قلبه حكمةً، ليفصل كل شيء على بينة ووضوح. ووضعت فى يده من الحقيقة الرائعة، ما يكون الحديد كالشمع فيها، فيغيّر شكله كيفما يشاء، ويستمد منه قوة عظيمة، لإرساء أركان خلافته، وإدامة دولته وحكمه. فما دام هذا الأمر ممكناً وواقعاً فعلاً، وذا أهمية بالغة فى حياتكم الاجتماعية، فأنتم يا بنى آدم إن أطعتم أوامرى التكوينية، تُوهَب لكم أيضاً تلك الحكمة والصنعة، فيمكنكم بمرور الزمن أن تقتربوا منهما وتبلغوهما".

وهكذا فإن بلوغ البشرية أقصى أمانيها فى الصناعة، وكسبها القدرة الفائقة فى مجال القوة المادية، إنما هو بتليين الحديد وبإذابة النحاس (القطر) فهذه الآيات الكريمة تستقطب أنظار البشرية عامة إلى هذه الحقيقة، وتلفت نظر السالفين وكسالى الحاضرين إليها، فتنبه أولئك الذين لا يقدرونها حق قدرها.

لغة الطيور وكيف يمكن الانتفاع بها :

قوله تعالى :

﴿والطير محشورة﴾ (ص : ١٩)

﴿علمنا منطق الطير﴾ (النمل : ١٦)

هذه الآيات تبين أن الله سبحانه قد علّم سيدنا داود وسليمان عليهما السلام منطق أنواع الطيور، ولغة قابلياتها واستعداداتها، أى أىّ الأعمال تناسبها؟ وكيف يمكن الاستفادة منها؟

نعم! هذه الحقيقة هى الحقيقة الجليلة، إذ ما دام سطح الأرض مائدة رحمانية، أقيمت تكريماً للإنسان، فيمكن إذاً أن تكون معظم الحيوانات والطيور التى تنتفع من هذه المائدة مسخّرة للإنسان، ضمن تصرفه وتحت خدمته. فالإنسان الذى استخدم النحل ودودة القز - تلكم الخدمة الصغار - وانتفع مما لديهم من إلهام إلهى، والذى استعمل الحمام الزاجل فى بعض شؤونه وأعماله، واستنطق الببغاء وأمثاله من الطيور، فضمّ إلى الحضارة الإنسانية محاسن جديدة .. هذا الإنسان يمكنه أن يستفيد إذاً كثيراً، إذا ما علم لسان الاستعداد الفطرى للطيور، وقابليات الحيوانات الأخرى، حيث هى أنواع وطوائف كثيرة جداً، كما استفاد من الحيوانات الأليفة، فمثلاً: إذا علم الإنسان لسان استعداد العصافير (من نوع الزرازير) التى تتغذى على الجراد ولا تدعها تنمو، وإذا ما نسّق أعمالها، فإنه يمكن أن يسخّرها لمكافحة آفة الجراد. فيكون عندئذٍ قد انتفع منها، واستخدمها مجاناً فى أمور مهمة.

فمثل هذه الأنواع من استغلال قابليات الطيور والانتفاع منها، واستنطاق الجمادات من هاتف وحاكٍ، تخط له الآية الكريمة المذكورة المدى الأقصى والغاية القصوى.

فيقول الله سبحانه بالمعنى الرمزى لهذه الآيات الكريمة :

"يا بنى الإنسان! لقد سخرت لعبد من بنى جنسكم، عبد خالص مخلص، سخرت له مخلوقات عظيمة فى ملكى وأنطقتها له، وجعلتها خداماً أمناء، وجنوداً مطيعين له، كى تعصم نبوته، وتصان عدالته فى ملكه ودولته. وقد أتيت كلاً منكم استعداداً ومواهب ليصبح خليفة الأرض، وأودعت فيكم أمانة عظمى، أبت السموات

والأرض والجبال أن يحملنها، فعليكم إذاً أن تنقادوا وتخضعوا لأوامر من بيده مقاليد هذه المخلوقات وزمامها، لتنقاد إليكم مخلوقاته المبثوثة فى ملكه. فالطريق ممهد أمامكم، إن استطعتم أن تقبضوا زمام تلك المخلوقات باسم الخالق العظيم، وإذا سموتم إلى مرتبة تليق باستعداداتكم ومواهبكم.

سيدنا آدم وتعليم الأسماء :

قال تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ (البقرة : ٣١)

تبين هذه الآية أن المعجزة الكبرى لآدم عليه السلام - فى دعوى خلافته الكبرى - هى تعليم الأسماء.

فمثلما ترمز معجزات سائر الأنبياء إلى خارقة بشرية خاصة لكل منهم، فإن معجزة أبى الأنبياء، وفاتح ديوان النبوة، آدم عليه السلام، تشير إشارة قريبة من الصراحة إلى منتهى الكمال البشرى، وذروة رقيه، وإلى أقصى أهدافه، فكأن الله سبحانه يقول بالمعنى الإشارى لهذه الآية الكريمة :

"يا بنى آدم! .. إن تفوّق أبيكم آدم فى دعوى الخلافة على الملائكة كان بما علمته الأسماء كلها، وأنتم بنوه ووارثوا استعدادته ومواهبه، فعليكم أن تتعلموا الأسماء كلها لتثبتوا جدارتكم أمام المخلوقات لتسلم الأمانة العظمى، فلقد مُهّد الطريق أمامكم لبلوغ أسمى المراتب العالية فى الكون، وسُخرت لكم الأرض، هذه المخلوقة الضخمة، فهيا انطلقوا وتقدموا، فالطريق مفتوح أمامكم .. واستمسكوا بكل اسم من أسمائى الحسنى، واعتصموا به، لتسموا وترتفعوا. واحذروا ! فلقد أغوى الشيطان أباكم مرة واحدة، فهبط من الجنة - تلك المنزلة العالية - إلى الأرض موقتاً. فإياكم أن تتبعوا الشيطان فى رقيكم وتقدمكم، فيكون ذريعة ترديكم من سموات الحكمة الإلهية إلى ضلالة المادية الطبيعية .. ارفعوا رؤوسكم عالياً، وأنعموا النظر والفكر فى أسمائى

الحسنى، واجعلوا علومكم ورقيكم سلماً ومراقى إلـى تلك السموات، لتبلغوا حقـائق علومكم وكمالكم، وتصلوا إلى منابعها الأصلية، تلك هى أسمائى الحسنى.

إن كل ما ناله الإنسان، من حيث جامعية ما أودع الله فيه من استعدادات من الكمال العلمى والتقدم الفنى، ووصله إلى خوارق الصناعات والاكتشافات، تعبر عنه الآية الكريمة بتعليم الأسماء : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾. وهذا التعبير ينطوى على رمز رفيع ودقيق، وهو :

أن لكل كمال، ولكل علم، ولكل تقدم، ولكل فن – أيا كان – حقيقة سامية عالية. وتلك الحقيقة تستند إلى اسم من الأسماء الحسنى، وباستنادها إلى ذلك الاسم الذى له حجب مختلفة، وتجليات متنوعة، ودوائر ظهور متباينة، يجد ذلك الفن وذلك الكمال وتلك الصنعة، كل منها كماله، ويصبح حقيقة فعلاً، وإلا فهو ظل ناقص مبتور باهت مشوش.

فالهندسة – مثلاً – علم من العلوم، وحقيقتها وغاية منتهاها هى الوصول إلى اسم (العدل والمقدر) من الأسماء الحسنى، وبلوغ مشاهدة التجليات الحكيمة لذلك الاسم، بكل عظمتها وهيبتها، فى مرآة علم (الهندسة).

والطب – مثلاً – علم ومهارة ومهنة فى الوقت نفسه، فمنتهاه وحقيقته يستند أيضاً إلى اسم من الأسماء الحسنى وهو (الشافى). فيصل الطب إلى كماله، ويصبح حقيقة فعلاً، بمشاهدة التجليات الرحيمة لاسم (الشافى) فى الأدوية المبثوثة على سطح الأرض، الذى يمثل صيدلية عظمى.

والعلوم التى تبحث فى حقيقة الموجودات – كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان .. هذه العلوم التى هى (حكمة الأشياء) يمكن أن تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله **(الحكيم)** جلّ جلاله فى الأشياء، وهى تجليات

تدبير، وتربية، ورعاية. وبرؤية هذه التجليات فى منافع الأشياء ومصالحهـا، تصبح تلك الحكمة حكمة حقاً، أى باستنادها إلى ذلك الاسم (الحكيم) وإلى ذلك الظهير تصبح حكمة فعلاً، وإلا فإما أنها تنقلب إلى خرافات، وتصبح عبثاً لا طائل من ورائها، أو تفتح سبيلاً إلى الضلالة، كما هو الحال فى الفلسفة الطبيعية المادية.

فإليك الأمثلة الثلاثة كما مرت .. قس عليها بقية العلوم والفنون والكمالات.

سيدنا محمد ﷺ كنز علمى عظيم :

إن خاتم ديوان النبوة، وسيد المرسلين، الذى تعد جميع معجزات الرسل، معجزة واحدة لتصديق دعوى رسالته، والذى هو فخر العالمين، وهو الآية الواضحة المفصلة لجميع مراتب الأسماء الحسنى كلها، التى علمها الله سبحانه آدم عليه السلام تعليماً مجملاً .. ذلكم الرسول الحبيب محمد ﷺ الذى رفع إصبعه عالياً بجلال الله فشق القمر، وخفض الإصبع المبارك نفسه بجمال الله، ففجر ماء كالكوثر .. وأمثالها من المعجزات الباهرات التى تزيد على الألف .. هذا الرسول الكريم أظهر القرآن الكريم معجزة كبرى تتحدى الجن والإنس : ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ (الإسراء : ٨٨). فهذه الآية الكريمة وأمثالها من الآيات، تجلب أنظار الإنس والجن إلى إبراز وجوه الإعجاز فى هذه المعجزة الخالدة وأسطعها، فتلفتها إلى ما فى بيانه الحق والحقيقة من جزالة، وإلى ما فى تعابيره من بلاغة فائقة، وإلى ما فى معانيه من جامعية وشمول، وإلى ما فى أساليبه المتنوعة من سمو ورفعة وعذوبة.

فتحدّى القرآن المعجز، وما زال كذلك يتحدى، الإنس والجن قاطبة، مثيراً الشوق فى أوليائه، محركاً ساكن عناد أعدائه، دافعاً الجميع إلى تقليده، بشوق عظيم وترغيب شديد، للإتيان بنظيره، بل إنه سبحانه يضع هذه المعجزة الكبرى أمام

أنظار الأنام فى موقع رفيع، لكأن الغاية الوحيدة من مجئ الإنسان إلى هذه الدنيا، ليست سوى اتخاذه تلك المعجزة العظمى دستور حياته، وغاية مناه.

نخلص مما تقدم : أن كل معجزة من معجزات الأنبياء عليهم السلام تشير إلى خارقة من خوارق الصناعات البشرية .. أما معجزة سيدنا آدم عليه السلام فهى تشير إلى فهرس خوارق العلوم والفنون والكمالات، وتشوق إليها جميعاً، مع إشاراتها إلى أسس الصنعة إشارة مجملة مختصرة.

أما المعجزة الكبرى للرسول الأعظم ﷺ وهى : **القرآن الكريم ذو البيان المعجز**، فلأن حقيقة تعليم الأسماء تتجلى فيه بوضوح تام، وبتفصيل أتم، فإنه يبين الأهداف الصائبة للعلوم الحقة وللفنون الحقيقية، ويُظهر بوضوح كمالات الدنيا والآخرة وسعادتهما، فيسوق البشر إليها ويوجهه نحوها، مثيراً فيه رغبة شديدة فيها، حتى أنه يبين بأسلوب التشويق أن "أيها الإنسان! المقصد الأسمى من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه تظاهر الربوبية، وأن الغاية القصوى من خلقك أنت هى بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات".

فيعبر بتعابير متنوعة رائعة معجزة مشيراً بها إلى : أن البشرية فى أواخر أيامها على الأرض ستنساب إلى العلوم، وتنصب إلى الفنون، وستستمد كل قواها من العلوم والفنون، فيتسلم العلم زمام الحكم والقوة.

ولما كان القرآن الكريم يسوق جزالة البيان وبلاغة الكلام مقدماً، ويكررهما كثيراً، فكأنه يرمز إلى أن البلاغة والجزالة فى الكلام – وهما من أسطع العلوم والفنون – سيلبسان أزهى حللهما وأروع صورهما فى آخر الزمان، حتى يغدو الناس يستلهمون أمضى سلاحهم من جزالة البيان وسحره، ويستلمون أرهب قوتهم من بلاغة الأداء، وذلك عند بيان أفكارهم ومعتقداتهم لإقناع الآخرين بها، أو عند تنفيذ آرائهم وقراراتهم.

النتيجة : ما دامت الآيات التى تخص معجزات الأنبياء عليهم السلام، لها نوع من الإشارة إلى خوارق التقدم العلمى والصناعى الحاضر، ولها طراز من التعبير كأنه يخط أبعد الحدود النهائية لها .. وحيث أنه ثابت قطعاً أن لكل آية دلالات على معانٍ شتى، بل هذا متفق عليه لدى العلماء .. ولما كان هناك أوامر مطلقة لاتباع الأنبياء عليهم السلام والاقتداء بهم، لذا يصح القول :

أنه مع دلالة الآيات المذكورة سابقاً على معانيها الصريحة، هناك دلالات مشوّقة بأسلوب الإشارة إلى أهم العلوم البشرية وصناعاتها.

جوابان مهمان عن سؤالين مهمين :

* **أحدهما** : إذا قلت : لما كان القرآن الكريم قد نزل لأجل الإنسان، فَلِمَ لا يصرّح بما هو المهم فى نظره من خوارق المدنية الحاضرة ؟ وإنما يكتفى برمز مستتر، وإيماء خفى، وإشارة خفيفة، وتنبيه ضعيف فحسب ؟

فالجواب : أن خوارق المدنية البشرية لا تستحق أكثر من هذا القدر، إذ أن الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم : هى تعليم شؤون دائرة الربوبية وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.

لذا فإن حق تلك الخوارق البشرية وحصتها من تلك الدائرتين مجرد رمز ضعيف وإشارة خفية ليس إلا .. فإنها لو ادعت حقوقها من دائرة الربوبية، فعندها لا تحصل إلا على حق ضئيل جداً.

فمثلاً : إذا طالبت الطائرة البشرية[1] القرآن الكريم قائلة :

---

(١) لقد انساق القلم دون إرادتى فى هذا الموضوع الجاد إلى هذا الحوار اللطيف فتركته وشأنه، على أمل ألا يخل لطافة الأسلوب بجدية الموضوع - المؤلف (سعيد النورسى).

– "أعطنى حقاً للكلام، وموقعاً بين آياتك". فإن طائرات دائرة الربوبية، تلك الكواكب السيارة والأرض والقمر، ستقول بلسان القرآن الكريم :

– إنك تستطيعين أن تأخذى مكانك هنا بمقدار جرمك لا أكثر.

وإذا أرادت الغواصة البشرية موقعاً لنفسها بين الآيات الكريمة، فستتصدى لها غواصات تلك الدائرة؛ التى هى الأرض السابحة فى محيط الهواء، والنجوم العائمة فى بحر الأثير قائلة :

– إن مكانك بيننا ضئيل جداً يكاد لا يُرى!".

وإذا أرادت الكهرباء أن تدخل حرم الآيات، بمصابيحها اللامعة أمثال النجوم، فإن مصابيح تلك الدائرة، التى هى الشموس والشهب والأنجم المزيّنة لوجه السماء، سترد عليها قائلة :

– "إنك تستطيعين أن تدخلى معنا فى مباحث القرآن وبيانه، بمقدار ما تمتلكين من ضوء !!".

ولو طالبت الخوارق الحضارية – بلسان صناعتها الدقيقة – حقوقها وأرادت لها مقاماً بين الآيات .. عندها ستصرخ ذبابة واحدة بوجهها قائلة :

– "اسكتوا .. فليس لكم حق. ولو بمقدار أحد جناحىّ هذين! ولئن اجتمع كل ما فيكم من المصنوعات والاختراعات – التى اكتشفت اكتساباً بإرادة الإنسان الجزئية – مع جميع الآلات الدقيقة لديكم، لن تكون أعجب بمقدار ما فى جسمى الصغير جداً من لطائف الأجهزة ودقائق الصنعة. وأن هذه الآية الكريمة تبهتكم جميعاً :

﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ﴾ (الحج : ٧٣)

وإذا ذهبت تلك الخوارق إلى دائرة العبودية، وطلبت منها حقها، فستتلقى منها مثل هذا الجواب :

– "إن علاقتكم معنا واهية وقليلة جداً، فلا يمكنكم الدخول دائرتنا بسهولة، لأن منهجنا هو :

أن الدنيا دار ضيافة، وأن الإنسان ضيف يلبث فيها قليلاً، وله وظائف جمة، وهو مكلف بتحضير وتجهيز ما يحتاجه لحياته الأبدية الخالدة فى هذا العمر القصير، لذلك يجب عليه أن يقدم ما هو الأهم والألزم.

إلا أنه تبدو عليكم – على اعتبار الأغلبية – ملامح نسجت بحب هذه الدنيا الفانية، تحت أستار الغفلة واللهو، وكأنها دار للبقاء ومستقر للخلود. لذا فإن حظكم من دائرة العبودية، المؤسسة على هدى الحق والتفكر فى آثار الآخرة، قليل جداً.

ولكن .. إن كان فيكم – أو من ورائكم – من الصناع المهرة والمخترعين الملهمين – وهم قلة – وكانوا يقومون بأعمالهم مخلصين لأجل منافع عباد الله – وهى عبادة ثمينة – ويبذلون جهدهم للمصلحة العامة ورقى الحياة الاجتماعية وكمالها، فإن هذه الرموز والإرشادات القرآنية كافية بلا ريب، لأولئك الذوات المرهفى الإحساس، ووافية لتقدير مهاراتهم وتشويقهم إلى السعى والاجتهاد.

* **السؤال الثانى :**

وإذا قلت : "لم تبق لدىّ الآن بعد هذا التحقيق شبهة، فقد ثبت عندى بيقين وصدّقت؛ أن القرآن الكريم فيه جميع ما يلزم السعادة الدنيوية والأخروية، كل حسب قيمته وأهميته، فهناك رموز وإشارات إلى خوارق المدنية الحاضرة، بل إلى أبعد منها من الحقائق الأخرى، مع ما فيه من حقائق جليلة .. ولكن لِمَ لم يذكر القرآن الكريم تلك الخوارق بصراحة تامة، كى تجبر الكفرة العنيدين على التصديق والإيمان، وتطمئن قلوبنا فتستريح ؟.

الجواب :

إن الدين امتحان، وإن التكاليف الإلهية تجربة واختبار، من أجل أن تتسابق الأرواح العالية والأرواح السافلة، ويتميز بعضها عن بعض فى حلبة السباق.

فمثلما يختبر المعدن بالنار، ليتميز الألماس من الفحم، والذهب من التراب؛ كذلك التكاليف الإلهية فى دار الامتحان هذه. فهى ابتلاء وتجربة وسوق للمسابقة، حتى تتميز الجواهر النفيسة لمعدن قابليات البشر واستعداداته، من المعادن الخسيسة.

فما دام القرآن قد نزل – فى دار الابتلاء هذه – بصورة اختبار للإنسان، ليتم تكامله فى ميدان المسابقة، فلابد أنه سيشير – إشارة فحسب – إلى هذه الأمور الدنيوية الغيبية، التى ستتوضح فى المستقبل للجميع، فاتحاً للعقل باباً بمقدار إقامة حجته. وإلا فلو ذكرها القرآن الكريم صراحة، لاختلت حكمة التكليف، إذ تصبح بديهية مثل كتابة (لا إله إلا الله) واضحاً بالنجوم على وجه السماء، والذى يجعل الناس – أرادوا أم لم يريدوا – عندئذ مرغمين على التصديق، فما كانت ثمة مسابقة ولا اختبار ولا تمييز. فحينئذ تتساوى الأرواح السافلة التى هى كالفحم، مع التى هى كالألماس[1].

والخلاصة :

أن القرآن العظيم، حكيمٌ يعطى لكل شىء قدره من المقام، ويرى القرآن من ثمرات الغيب التقدم الحضارى البشرى قبل ألف وثلاثمائة سنة، المستترة فى ظلمات المستقبل، أفضل وأوضح مما نراها نحن وسنراها. فالقرآن إذاً كلام من ينظر إلى كل الأزمنة بما فيها من الأمور والأشياء فى آن واحد.

---

(١) فكان أن ظهر أبو جهل اللعين مع أبى بكر الصديق ﷺ فى مستوى واحد. ولضاع التكليف (المؤلف سعيد النورسى).

فتلك لمعة من الإعجاز القرآنى، تلمع فى وجه معجزات الأنبياء، الذين أرسلهم الله أئمة الهدى للبشرية .. اللهم فهّمنا أسرار القرآن، ووفقنا لخدمته فى كل آن وزمان.

﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾

اللهم صل وسلم وبارك وكرم على سيدنا ومولانا محمد، عبدك ونبيك ورسولك النبى الأمى وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وعلى النبيين والمرسلين، والملائكة المقربين والأولياء والصالحين، أفضل صلاة وأزكى سلام وأنمى بركات، بعدد سور القرآن وآياته، وحروفه وكلماته، ومعانيه وإشاراته، ورموزه ودلالاته، واغفر لنا وارحمنا، والطف بنا يا إلهنا، يا خالقنا، بكل صلاة منها برحمتك يا أرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين

الفصل الثالث

دور النبوة فى تلبية الاحتياجات الإنسانية

بعدما اطلعنا على غيض من فيض الرحمة الربانية، فى التفضل على البشرية ببعثة الأنبياء والمرسلين، لهداية الناس إلى رب العالمين، وإرشادهم إلى الطريق القويم .. نبين فى هذا الفصل دور النبوة فى تلبية الاحتياجات الإنسانية، وذلك من خلال تلك الكلمات النيرة لإمامنا الجليل النورسى فى رسائل النور .. ونبدأ أولاً بالتعرف على ماهية الإنسان، حتى نعرف بعد ذلك بجلاء الدور العظيم للأنبياء، ونوقن قبل هذا وذاك برحمة الكبير المتعال.

من أنت أيها الإنسان ؟

لقد بذل الإمام النورسى ﷺ جهداً كبيراً فى كشف الغطاء عن هذا اللغز المحير وهو الإنسان، وذلك ليساعده على معرفة نفسه، "ومن عرف نفسه عرف ربه" كما أنبأنا بذلك الصادق المعصوم .. والحق يقال : أن كتابات ذلك الإمام العظيم عن الإنسان، تستحق أن تسجل بحروف من نور، لأنها أعلى درجات الفكر الذى يستنير بنور الإيمان، النابع من قلب يتجلى عليه الحق بكل تجليات الجلال والجمال.

فماذا يقول الإمام النورسى عن الإنسان ؟

- يقول : إن "الإنسان" الذى مادته "صلصال كالفخار" ينكسر ويتمزق بسرعة .. فما قيمته إلا شىء قليل .. وأما ما فيه من الصنعة فأمر عظيم، تزيد قيمتها على قيمة المادة بدرجات لا تعد ولا تحصى .. فالإنسان كماكينة مشتملة على ملايين آلاف الوزن وميزانات الفهم، توزن بها مدخرات خزينة الرحمة، حتى

أودع فى اللسان فقط جهازات للوزن بعدد المطعومات، ليحس ذوو اللسان بأنواع دقائق نعم الجواد[١].

- فاعلم أيها الإنسان : أن الفاطر الحكيم إنما ركب فى وجودك هذه الحواس والحسيات والجهازات، لإحساس أنواع نعمه التى لا تعد ولا تحصى، ولإذاقة أقسام تجليات أسمائه .. فما غايات حياتك وحقوقها، إلا إظهارك لآثار تجليات أسمائه، وتشهير غرائبها لدى أنظار المخلوقات .. وما إنسانيتك إلا شعورك بهذه الوظيفة .. وما إسلاميتك إلا إذعانك بهذه المظهرية[٢].

- واعلم : أن الإيمان أكسير الحياة، حيث يقلب فحم المادة الفانية فيك إلى ألماس مرصع باقى بمعناه بنسبته إلى الصانع الباقى .. والإنسان بالكفر يعكس فينتكس، إذ كما أنه يوجد فى مصنوعات البشر، ما تكون قيمة مادته خمسة دراهم، وقيمة صنعته ألوف الدنانير، وتتزايد تلك القيمة حسب شهرة الصانع .. كذلك فى مصنوعات الحكيم الخبير، فالإيمان ينسب الإنسان إلى مالكه، فتزيد قيمة الإنسان، إلى أن تصير الجنة ثمنه، وتكون الخلافة رتبته، ويطيق على حمل الأمانة .. أما الكفر فهو قاطع النسبة والوصلة، وتسقط القيمة إلى درجة يتمنى الكافر العدم، أو ينقلب ترابا[٣].

- واعلم : أنه يفهم من كمال ذكاوة **الحيوان** وقت خروجه إلى الدنيا، ومهارته فى العلم العملى المتعلق بحياته : أن إرساله إلى الدنيا للتعمل لا للتكمل بالتعلم.

ويفهم من كمال جهالة **الإنسان**، وعجزه وقت إخراجه إلى الدنيا، واحتياجه إلى التعلم فى كل مطالبه وفى جميع عمره : أن إرساله إلى الدنيا للتكمل بالتعلم

---

(١) المثنوى – ص ٤٤١.
(٢) المثنوى – ص ٣٨٦.
(٣) المثنوى – ص ٤٤١.

والتعبد، لا للتعمل .. **وما عمله المطلوب** : إلا تنظيم أعمال ما سخره الله له من النباتات والحيوانات، والاستفادة من نواميس الرحمة .. وإلا الدعاء والالتجاء والسؤال والتضرع والتعبد، لمن سخر له مع نهاية ضعفه وعجزه، وغاية فقره واحتياجه هذه الموجودات .. **وما علمه المقبول** : إلا معرفة من كرّمه وسخر له وجهزه للعبادة والسعادة بتعلم حكمة الكائنات، بوجه ينتج معرفة خالقها، بأسمائه وصفاته وجلاله وجماله وكماله .. وغير هذا الوجه لا يثمر الهدف من وجود الإنسان[1].

- الإنسان هو الثمرة النهائية لشجرة الخلقة .. ومن المعلوم أن الثمرة هى أبعد أجزاء الشجرة وأجمعها وألطفها، لذا فالإنسان هو ثمرة العالم، وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الربانية، وفى نفس الوقت أكثرها عجزاً وضعفاً ولطفاً .. فهذا الإنسان هو سيد الموجودات رغم أنه صغير جداً، لما يملك من فطرة جامعة شاملة .. فهو قائد الموجودات، والداعى إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة ومظهرها .. لذا فإن له أهمية عظمى[2].
- إن فى روح الإنسان احتياجات لا تتناهى، وقابلية لتألمات لا تتناهى، واستعداداً لتلذذات لا تتناهى، ومهيئ لآمال وآلام لا تتناهى، حتى أن الشفقة مع ضلالة القلب تتضمن آلاماً غير متناهية[3]. نعم إن القلب المتعرض لأحزان وآلام لا حد لها، المفتون بآمال ولذائذ لا نهاية له، لا يمكنه أن يكسب قوة ولا غذاء إلا بطرق باب الرحيم الكريم، القادر على كل شيء بكل تضرع وتوسل.

---

(١) المثنوى – ص ٤٨٠.

(٢) الكلمات – ص ٢٠٤، ٦٣.

(٣) المثنوى – ص ٢٥٧.

وإن الروح المتعلقة بأغلب الموجودات الآتية، والراحلة سعياً فى هذه الدنيا الفانية، لا تشرب ماء الحياة إلا بالتوجه بالصلاة إلى ينبوع رحمة المعبود الباقى والمحبوب السرمدى(١).

- إن الإنسان بفطرته ضعيف جداً، ومع ذلك فما أكثر المنغصات التى تورثه الحزن والألم، وهو فى الوقت نفسه عاجز جداً، مع أن أعداءه ومصائبه كثيرة جداً، وهو فقير جداً، مع أن حاجاته كثيرة وشديدة، وهو كسول وبلا اقتدار، مع أن تكاليف الحياة ثقيلة عليه، وإنسانيته جعلته يرتبط بالكون جميعاً، مع أن فراق ما يحبه وزوال ما يستأنس به يؤلمانه، وعقله يريه مقاصد سامية وثماراً باقية، مع أن يده قصيرة وعمره قصير، وقدرته محدودة وصبره محدود(٢).
- وهكذا فلا خلاص للقلوب والأرواح من قبضة القلق الرهيب، ومن دوامات الاضطراب والخوف، ومن ظمأ الضلالة وحرقة نار البعد عن الله، إلا بمعرفة خالق واحد أحد .. إذ ما إن يسلّم أمر القلوب والأرواح، وأمر كل الموجودات إلى خالق واحد أحد، حتى تجد راحتها، وتحظى بخلاصها من عناء تلك الزلازل النفسية المدمرة، وتسكن من ذلك القلق وتستقر وتطمئن(٣).

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد : ٢٨)

فالإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين، بينما يتردى بظلمة الكفر إلى أسفل سافلين.

أما كيف يتحقق ذلك ؟

فهو ما سنشرحه فيما يلى فى دور النبوة فى تلبية الاحتياجات الإنسانية.

---

(١) الكلمات - ص ٢٩٨.
(٢) الكلمات - ص ٤١.
(٣) الكلمات - ص ٧٩٣.

أولاً : احتياج الإنسان إلى الربوبية :

إن أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية، هى الإيمان بالله .. وأعلى مرتبة للإنسانية، وأفضل مقام للبشرية، هو معرفة الله التى فى ذلك الإيمان .. وأزهى سعادة للإنس والجن وأحلى نعمة، هى محبة الله النابعة من تلك المعرفة .. وأصفى سرور لروح الإنسان وأنقى بهجة لقلبه، هى اللذة الروحية المترشحة من تلك المحبة.

لماذا ؟

- لأن روح الإنسان المتلهفة إلى حاجات غير محدودة، والمستهدفة من قبل أعداء لا يُعدون .. هذه الروح المبتلاة تجد فى الإيمان بالله منبعاً ثرياً من الاستمداد، بما يفتح لها أبواب خزائن رحمة واسعة، تطمئن جميع الحاجات .. كذلك تجد فيه مرتكزاً شديداً، ومستنداً قوياً يدفع عنها جميع الشرور، ويصرف عنها جميع الأضرار، وذلك بما يشعر به الإنسان من قوة مولاه الحق القدير.
- وإن روح البشر، وقلبه المرهقين بل الغارقين إلى حد الاختناق تحت ضغوط ارتباطات شديدة وأواصر متينة مع أغلب أنواع الكائنات، يجدان فى الالتجاء إلى رب قدير ملجأ أميناً ينقذهما من تلك المهالك والدوامات .. حيث تقول لهم الرسل : إن الله واحد أحد، فلا تتعب نفسك أيها الإنسان بمراجعة الأغيار، ولا تتذلل لهم فترزح تحت منتهم وأذاهم، ولا تحنى رأسك أمامهم وتتملق لهم، ولا تخف منهم ولا ترتعد إزاءهم .. لأن سلطان الكون واحد، وعنده مفاتيح كل شىء، وتتفرج كل شدة بإذنه .. فإن وجدته فقد ملكت كل شىء، وفزت بما تطلبه، ونجوت من أثقال المن والأذى، ومن أسر الخوف والوهم.

- وتحمل الأنبياء بشرى بهيجة، وأملاً باسماً إلى الإنسان، فتقول له : إذا استنارت روحك بنور الإيمان، تستطيع عرض حاجاتك كلها بلا حاجة ولا مانع بين يدى ذلك القدير ذى الكمال، وتطلب ما يحقق رغباتك أينما كنت، حيث تفرش حاجاتك ومطاليبك كلها أمام ذلك الرحيم، الذى يملك خزائن الرحمة الواسعة، مستنداً إلى قوته المطلقة، فهو سلطان الأزل والأبد، واحد لا شريك له فى سلطنته، فليس له حاجة قط فى إجراءات ربوبيته إلى شركاء ومعينين للتنفيذ، فيمكن للجميع أن يراجعوه دون وسيط، لعدم وجود شريك.
- وتقول الأنبياء أيضاً : أيها الإنسان ! لا تحسب أنك مالك نفسك .. كلا .. لأنك لا تقدر على أن تدير أمور نفسك، وذلك حمل ثقيل وعبء كبير .. ولا يمكنك أن تحافظ عليها فتنجيها من البلايا والرزايا، وتوفر لها لوازم حياتك. فلا تجرع نفسك إذن الآلام سدى، فتلقى بها فى أحضان القلق والاضطراب دون جدوى، فالملك ليس لك، وإنما لغيرك، وذلك المالك قادر، وهو رحيم، فاستند إلى قدرته ولا تتهم رحمته .. وأن هذا الوجود الذى تهواه معنى وتتعلق به، وتتألم لشقائه واضطرابه تحس بعجزك عن إصلاحه .. هذا الوجود كله ملك لقادر رحيم، فسلم الملك لمولاه، وتخل عنه فهو يتولاه، واسعد بمسراته وهنائه، دون أن تكدرك معاناته ومقاساته .. فالمولى حكيم ورحيم، يتصرف فى ملكه كيف يشاء وفق حكمته ورحمته.
- واحتياج الإنسان إلى الربوبية هو : احتياجه إلى الاطمئنان إلى الرزق، ودوام النعم، وإلى حب البقاء .. فتطمئنه الرسل بأن خزائن الرحمة لا تنفذ، وأن الله هو الذى يهب الحياة، وهو الذى يديمها بالرزق، وهو المتكفل بكل ضروراتها وحاجاتها .. وهو الذى يهب الموت، ويحررك من عبء الخدمة فى الدنيا الفانية، ويأخذك إلى الحياة الباقية، حيث السعادة الخالدة، والتجمع مع الأحباب .. فأعمالك التى أديتها، وعبوديتك التى قمت بها، لا تذهب هباء منثوراً،

فأمامك جنة خالدة، مشتاقة لقدومك .. فثق بوعد خالقك ذى الجلال، وآمن به واطمئن إليه، فإنه محال أن يخلف وعداً قطعه على نفسه[(١)].

- وهكذا فإن من تمام رحمة الله على عباده : إرسال الرسل لتلبية احتياج الإنسانية إلى الربوبية .. فكما أنه محال أن لا يكون لهذا الملك المعنى به مالك، كذلك محال أن لا يتعرف ذلك المالك إلى الإنسان، الذى يدرك درجات محاسن الملك، الدالة على كمالات المالك، مع أن ذلك الإنسان كالخليفة فى مهده الممهد له، يتصرف فيه كيف يشاء، بل فى السقف المحفوظ السماوى أيضاً بعقله .. ومع ذلك فالإنسان أشرف المخلوقات، بشهادة تصرفاته العجيبة الخارقة مع صغره وضعفه، وأنه أوسع الأسباب اختياراً بالبداهة .. فبالضرورة يرسل المالك من يعرف المالك إلى مماليكه الغافلين عنه، ويخبرهم ما يرضى به، وما يطلبه منهم ذلك المالك جل جلاله[(٢)].

ثانياً : الاحتياج إلى الرحمة والرأفة :

إن الإنسان المتقلب فى خضم عجز لا نهاية له، وفقر لا حد له، يحتاج إلى الرحمة والرأفة، والشفقة التى لا نهاية له .. ولا يستطيع أحد أن يشبع تلك الاحتياجات الإنسانية إلا الأنبياء، وأكملهم فى ذلك سيدنا محمد ﷺ حيث قال عنه المولى عزّ وجلّ :

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ (التوبة : ١٢٨)

---

(١) المكتوبات – ص ٢٨٩ : ٢٩٦.

(٢) المثنوى – ص ٢٤٤.

وقد وردت روايات كثيرة صحيحة، تبين مدى رأفته الكاملة، وشفقته التامة على أمته، ليس فى الدنيا فقط، بل إنه يدعو يوم الحشر الأعظم بـ "أمتى أمتى"[(١)].

فى الوقت الذى يدعو كل أحد، بل حتى الأنبياء عليهم السلام بـ "نفسى نفسى" من هول ذلك اليوم ورهبته .. كما تبين هذه الروايات عظيم شفقته على أمته حتى عند ولادته، حيث سمعته أمه يناجي "أمتى أمتى" كما هو مصدق لدى أهل الكشف من الأولياء الصالحين .. وكذا أن سيرته العطرة كلها، وما نشره فى الآفاق من مكارم الأخلاق المكللة بالشفقة والرحمة، تبين كمال رأفته وشفقته، التى تداوى جميع جروح الإنسان.

كما أنه أظهر عظيم شفقته على أمته، بإظهار حاجته التى لا تحد إلى صلوات أمته عليه، تلك الصلوات التى تبين مدى علاقته الرؤوفة بجميع سعادات أمته، لأنها تشرح صدورهم، وتنور قلوبهم، وترتفع بهم إلى عليين، حيث السعادة الأبدية[(٢)].

إن الرسول ﷺ ينظر إلى الناس كافة، والمؤمنين خاصة، نظر الرحمة والشفقة من زاوية الرحمة الإلهية، ويعاملهم معاملة الأب الحنون من حيث النبوة، ولذلك فإن رحمته تفوق رحمة الأب وشفقته أضعافاً مضاعفة، حتى ينظر إليه المؤمنون نظرهم للأب، وكأنهم أولاده الحقيقيون[(٣)]. ولكنه رسول رحيم، أرسله الله رحمة للعالمين .. وفى ضوء هذه الرأفة الشاملة، وهذه الرحمة الواسعة، لهذا المرشد الرؤوف الرحيم ﷺ يكون الإعراض عنه خسارة عظمى للبشرية، تحرمها

---

(١) الحديث بطوله أخرجه البخارى برقم ٣٣٤٠ و ٣٣٦١ و ٤٧١٢ .. ومسلم برقم ١٩٤ والترمذى برقم ٢٥٥١ "تحفة" كلهم عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) اللمعات – ص ٢٩.

(٣) الكلمات – ص ٤٧٩، المكتوبات – ص ٣٥.

من أشد الاحتياجات الإنسانية، بل تكون قد حكمت على نفسها بموت الوجدان والأحاسيس السامية.

ثالثاً : الاحتياج إلى نقطة استمداد واستناد :

إن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة إلى أرجاء الجسد، كذلك العقدة الحياتية فيه، وهى معرفة الله، تنشر الحياة إلى آمال الإنسان، وميوله المتشعبة فى مواهبه واستعداداته الغير محدودة، كل بما يلائمه، فتقطر فيها اللذة والنشوة وتزيدها قيمة وأهمية، بل تبسطها وتصقلها. فهذه هى **نقطة الاستمداد** التى تبعث الشوق للعشق الإلهى، وتحلق بالإنسان إلى الآفاق العلا من السعادة السرمدية.

والمعرفة الإلهية نفسها : هى **نقطة استناد** للإنسان أمام تقلبات الحياة ودواماتها، وأمام تزاحم المصائب والنكبات وتواليها عليه .. إذ الإنسان إن لم يعتقد بالخالق الحكيم، الذى كل أمره نظام وحكمة، وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء، وارتكن إلى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئاً من المصائب، فإنه سينهار حتماً من فزعه وخوفه، من هول ما يحيط به من بلايا، وسيشعر بحالات أليمة تذكره بعذاب جهنم .. وهذا ما لا يتفق وكمال روح الإنسان المكرم، إذ يستلزم ذلك الوهم سقوطه إلى هاوية الذل والمهانة، مما ينافى النظام المتقن القائم فى الكون كله.

أى أن هاتين النقطتين : نقطة الاستمداد والاستناد، ضروريتان لروح الإنسان، فالخالق الكريم ينشر نور معرفته، ويبثها فى وجدان كل إنسان، من خلال هاتين النافذتين (نقطة الاستمداد ونقطة الاستناد)[1]. وهنا يبرز دور الأنبياء فى نشر نور السماء فى وجدان الإنسان، لتحريره من قيود العقل الضال، الذى قد يتيه به فى ظلمات المادية وطوفان الأسباب.

---

(١) المثنوى – ص ٤٣١.

فإن شئت معرفة عظمة هذا الدور :

فتأمل فى حال شخص لم ينعم بنور الأنبياء، تجده يرى البليات والعلل كالأعداء تهجم عليه، فينظر مسترحماً إلى العناصر والطبائع، فيراها غليظة القلب بلا رحمة، فيرفع رأسه – مستمداً – إلى الأجرام العلوية، فيراها مهيبة ومدهشة تهدده كأنها قذائف نارية مائلة تمر حوله. وإذا تأمل نفسه، يسمع ألوف صيحات حاجاته، وأنين فاقاته .. وإذا نظر إلى وجدانه، يرى فيه ألوفاً من آمال متهيجة لا تشبعها الدنيا.

وهكذا فإن له حالة تركبت من الخوف والهيبة والعجز والقلق والوحشة واليتم واليأس، ولا تكون جهنم أشد عليه من حاله، وأحرق لروحه، فهو يتخيل كل شيء غريباً، ولا يستأنس بشيء.

ثم تأمل فى حال ذلك الشخص : إذا استضاء وجدانه وروحه بنور الإيمان .. فإن العاديات الخارجية إذا هاجمته يرى "نقطة استناد" يستند إليها، وهى معرفة الصانع فيستريح .. وإذا فتش عن استعداداته وآماله الممتدة إلى الأبد، يرى "نقطة استمداد" يستمد منها آماله، ويتشرب منها ماء الحياة، وهى معرفة السعادة الأبدية. وإذا رفع رأسه فى الكائنات يستأنس بكل شيء، ويرى فى حركات الأجرام حكمة خالدة، يناجيه كل منها بلسانه الخاص : أهلاً وسهلاً، كلنا مشغولون بخدمة مالكك، فلا تخف من تهديد البلايا، فإن لجام كل شيء بيد خالقك[1].

وهكذا يشعر الإنسان الذى احتمى بحمى الأنبياء، بلذة عالية وسعادة عاجلة، علاوة على ما ينتظره من جنة فى الآخرة.

---

(١) إشارات الإعجاز – ص ٣٧، ٣٨.

رابعاً : تلبية الاحتياجات الفطرية اللانهائية للحب :

إن الحب من أشد الاحتياجات الإنسانية، حيث كل إنسان يحتاج إلى وجود قلب مقابلاً لقلبه، لمداولة المحبة، ومبادلة العشق والمؤانسة، والتشارك فى اللذة، بل والتعاون فى أمثال الحيرة والتفكر .. حيث إذا رأى الإنسان ما يتحير فيه، أو تفكر فى أمر عجيب، فإنه يستدعى – ولو ذهنياً – من يعينه فى تحمل الحيرة[١].

فالحب هو متمم الامتزاج الروحى، ومكمل الاستيناس القلبى، وهو من ألطف أنواع الرحمة الإلهية، وسر الفعالية المحيرة للألباب، الجارية فى الكائنات، حيث كل شخص يؤدى وظيفة فطرية، أو يقوم بمهمة اجتماعية، فإنه يشعر بمحبة وشوق ولذة، أثناء أدائه لتلك الوظيفة[٢].

ونظراً لأن اللذة إنما تكون لذة حقيقية إذا لم ينغصها الزوال .. ونظراً لأن الإنسان مخلوق للأبد، لذلك فإن اللذة الحقيقية لا يمكن أن تحصل له إلا فى حب الأمور الأبدية : كالمعرفة الإلهية والمحبة والكمال والعلم وأمثالها[٣]. وهذا ما يسعى إليه الأنبياء لتحقيق السعادة القصوى للإنسان.

فالمحبة الإلهية : تحقق الوجود الحقيقى للإنسان، بانسياق لطائفه جميعاً إلى ما خلقت من أجله، لأنها تحرك قلب الإنسان، الذى يعتبر مركزاً لجسمه ولولباً لحركته، وتوجهه إلى الله، فيندفع بذلك كثير من اللطائف الإنسانية إلى الحركة والظهور، فتتحقق حقيقة الإنسان[٤].

---

(١) إشارات الإعجاز – ص ١٩٥.
(٢) الكلمات – ص ٧٦٨.
(٣) إشارات الإعجاز – ص ١٩٦.
(٤) المكتوبات – ص ٢٨٩.

كما أن محبة الله تحقق خلاص الإنسان من الوحشة الهائلة التى تكتنفه فى حياته الدنيا، وانسلاله من الغربة الأليمة التى يحسها إزاء الكون، والشعور بالأنس المعنوى فى الحياة الدنيا والبرزخ والآخرة، والشعور بالحقائق اللطيفة فى التكاليف الشرعية، والوصول إلى مرتبة الإنسان الكامل[١].

إن من أجلّ نعم الله على الإنسانية هى إرسال الأنبياء لتعريف الناس بالمحبة الإلهية، لأن الإنسان جُبل على محبة غير متناهية لخالق الكون، وذلك لأن الفطرة البشرية تكن حباً للجمال، ووداً للكمال، وافتتاناً بالإحسان .. وتتزايد تلك المحبة بحسب درجات الجمال والكمال والإحسان، حتى تصل إلى أقصى درجات العشق ومنتهاه[٢]. نعم إن فى القلب الصغير لهذا الإنسان الصغير، يستقر عشق بكبر الكون، ولن يوفى لذلك القلب احتياجاته من الحب إلا الحب الإلهى، لأنه يداوى ضعف الإنسان وعجزه وفقره واحتياجه، بالتوكل على القدير الرحيم، مسلماً أثقال الحياة وأعباء الوجود إلى قدرته سبحانه، وإلى رحمته الواسعة، دون أن يحملها على كاهل الإنسان، بل يجعله مالكاً لزمام نفسه وحياته، واجداً له بذلك مقاماً مريحاً، ويعرفه بأنه ليس بحيوان ناطق، بل هو إنسان بحق، وضيف عزيز مكرم، عند الملك الرحمن[٣].

خامساً : الاحتياج إلى القدوة :

إن الإنسان يحتاج دائماً إلى القدوة، ولذلك أرسل الله الأنبياء أئمة الهدى، ومنارات على الطريق، وقدوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

---

(١) المكتوبات – ص ٥٩١ : ٥٩٣.
(٢) اللمعات – ص ٩١.
(٣) الكلمات – ص ٧٥٩.

ويتمثل طريق أهل الهداية، والمسلك السامى للأنبياء عليهم السلام، وفى المقدمة حبيب رب العالمين الرسول الأكرم ﷺ بأنها : وجودية وإيجابية وتعمير، كما أنها حركة واستقامة على الطريق والحدود، وهى تفكر بالعقبى، وعبودية خالصة لله، كما أنها سحق لفرعونية النفس الأمارة بالسوء وكبح لجماحها.

وهم قدوة ورواد تتعلم منهم الجماعات مناهج الحياة الاجتماعية والشخصية ودساتيرها، وتتعود على الانقياد لقوانين الإرادة الإلهية الحكيمة، وتتسجم مع دساتيرها الربانية[1].

وما دام – عليه الصلاة والسلام – متصفاً بأسمى مراتب محاسن الأخلاق باتفاق الأولياء والأعداء، وأنه ﷺ هو المصطفى المختار من بين بنى البشر، وهو أشهر شخصية فيهم باتفاق الجميع .. وما دام هو أكمل إنسان، بل أكمل قدوة ومرشد، بدلالة آلاف المعجزات، وبشهادة العالم الإسلامى الذى كونه، وبكمالاته الشخصية بتصديق حقائق ما بلغه من القرآن الحكيم .. وما دام ملايين من أهل الكمال قد سموا فى مراتب الكمالات، وترقوا فيها بثمرات اتباعه، فوصلوا إلى سعادة الدارين .. **فلابد أن سنة هذا النبى الكريم ﷺ وحركاته، هى أفضل نموذج للاقتداء، وأكمل مرشد للاتباع والسلوك، وأحكم دستور، وأعظم قانون، يمكن أن يتخذه المسلم أساساً فى تنظيم حياته.**

فالسعيد المحظوظ من كان هذا النبى ﷺ قدوة له، وكان له أوفر نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة .. ومن لم يتبع السنة فهو فى خسران مبين، إن كان متكاسلاً عنها، وفى جناية كبرى إن كان غير مكترث بها .. وفى ضلالة عظيمة إن كان منتقداً لها، بما يومئ التكذيب بها .. فاتباع عاداته ﷺ وحركاته وسكناته

---

(١) اللمعات – ص ١٢٤، ١٢٥.

السامية حكمة ومصلحة، سواء فى الحياة الشخصية أو النوعية أو الاجتماعية، فضلاً عن أنها بالمتابعة تصير تلك الآداب والعبادات بحكم العبادة(١).

ويقول الإمام النورسى مؤكداً أهمية اتباع النبوة، كقدوة فى إنارة الطريق وتفريج الهموم للإنسان :

عندما كان يسعى هذا السعيد الفقير إلى الله، للخروج من حالة سعيد القديم، ارتج عقلى وقلبى وتدحرجا ضمن الحقائق، إزاء إعصار معنوى رهيب، فقد شعرت كأنهما يتدحرجان هبوطاً، تارة من الثريا إلى الثرى، وتارة صعداً من الثرى إلى الثريا، وذلك لانعدام المرشد، ولغرور النفس الأمارة .. وشاهدت حينئذ أن مسائل السنة النبوية الشريفة، بل حتى أبسط آدابها، كل منها فى حكم مؤشر البوصلة، الذى يبين اتجاه الحركة فى السفن، وكل منها فى حكم مفتاح مصباح، يضئ ما لا يحصر من الطرق المظلمة المضرة.

وبينما كنت أرى نفسى فى تلك السياحة الروحية، أرزح تحت ضغط مضايق كثيرة، وتحت أعباء أثقال هائلة، إذا بى أشعر بخفة كلما تتبعت مسائل السنة الشريفة المتعلقة بتلك الحالات، وكأنها كانت تحمل عنى جميع الأثقال، وترفع عن كاهلى تلك الأعباء .. فكنت أنجو باستمساك تام بالسنة من هموم التردد والوساوس مثل : "هل فى هذا العمل مصلحة؟ ترى هل هو حق؟" .. وكنت أرى متى ما كففت يدى عن السنة، تشتد موجات المضايقات وتكثر، وأرى الطرق المجهولة تتوعر وتغمض، والأحمال تثقل، وأنا عاجز فى غاية العجز، ونظرى قصير، والطريق مظلمة .. بينما كنت أشعر متى ما اعتصمت بالسنة، وتمسكت بها، تتنور الطريق أمامى، وتظهر كأنها طريق آمنة سالمة، والأثقال تخف، والعقبات تزول(٢).

(١) اللمعات – ص ٩٤، ٩٥.

(٢) اللمعات – ص ٨٢.

وهكذا فإن القدوة هامة وضرورية فى حياة الإنسانية، وخاصة إذا كانت القدوة من الأنبياء مبعوثى رب الأرضين والسماوات.

سادساً : حب البقاء والخوف من الموت :

فى فطرة الإنسان عشق شديد نحو البقاء، حتى أنه يتوهم نوعاً من البقاء فى كل ما يحبه، ولكن حالما يتفكر فى زواله، أو يشاهد فناءه، يطلق عليه الزفرات والحسرات والآهات من الأعماق .. وهكذا فإن الرعب من مواجهة الموت، وفراق الدنيا والأحبة، ينشأ من خصائص نفسية الإنسان وهى : الاستعداد غير المحدود للمحبة، وعشق البقاء.

وهنا يظهر دور الأنبياء، حيث يشبعون رغبة حب البقاء عند الإنسان، ويحررونه من الخوف من الموت، وذلك بما يحملونه من رسالة السماء التى نلخصها فى تلك النقاط :

أولاً : تجريد القلب مما سوى الله تعالى، وتوجيه استعداد المحبة فى الإنسان إلى من له جمال خالد مطلق، وقطع العلاقات مع الموجودات الفانية الزائلة حتى لا يذوق الإنسان وبال أمره بآلام الفراق، وما يتبعه من جراحات وآلام .. ومن يتجرع آلام الفراق، يكون نتيجة تقصيره هو، حيث وجه استعداد المحبة الذى خلقه الله فيه، إلى موجودات فانية، تعتبر ظلال باهتة للحسن والإحسان والكمال الإلهى، وكان الأولى أن يوجه ذلك الحب إلى الله سبحانه، الباقى دون سواه.

ثانياً : إخبارهم أن الله استجاب للرغبة الملحة للبقاء، المغروزة فى فطرة الإنسان، فخلق سبحانه عالماً باقياً خالداً، لهذا الإنسان الفانى الزائل .. فمن يريد تحويل عمره القصير الفانى، إلى عمر باق طويل مديد، مثمر بالمغانم

والمنافع، فعليه أن يصرف عمره فى سبيل الباقى، حيث يحيى قلبه وروحه بالمعرفة الإلهية والمحبة الربانية، وكل ثانية من هذا الوصال تعتبر كنافذة مطلة على حياة دائمة باقية، ويصبح هذا العمر الفانى بمثابة عمر أبدى(١).

ثالثاً : تحرير الإنسان من الخوف من الموت، وبيان أنه ليس انحلال وعدم وتفسخ، وانطفاء لنور الحياة، وهادم اللذات، كما يدعى أهل الغفلة والضلالة .. بل يبين الأنبياء : أن الموت فى حقيقته هو تسريح وإنهاء لوظيفة الحياة الدنيا، وهو دعوة إلى الحياة الباقية الخالدة، وهو إنقاذ للإنسان من تكاليف المعيشة الثقيلة، وهو باب وصال مع الأحبة الأعزاء فى عالم البرزخ، وأنه خروج من قضبان سجن الدنيا، إلى كنف المحبوب ورحمته الواسعة، وهو رحمة للمبتلين والمرضى والجرحى(٢).

وهكذا فإن الأنبياء عليهم السلام، يقومون بدور عظيم فى تلبية الاحتياجات الإنسانية المعنوية، مما يجعل المؤمنين بهم، السائرين على دربهم يعيشون فى أمن وسلام، وسكينة واطمئنان.

سابعاً : تبديد موجات اليأس القاتل :

إن اليأس من الأمراض القاتلة للنفس البشرية، وهو أشد ما تحاربه الرسالات السماوية، لأن الحياة حركة وفعالية، والشوق جوادها، وهو مطية الهمة لنشد معالى الأمور، فى ميادين معركة الحياة .. أما اليأس فهو العدو الألد الذى يفت من قوة الهمة(٣). ولذلك فقد جعله الله من صفات الكافرين، حيث لا يأس مع الإيمان

---

(١) اللمعات – ص ٢١ : ٢٥.

(٢) المكتوبات – ص ٨.

(٣) صيقل الإسلام – ص ٤٣٣.

بالله، ولا إيمان مع اليأس. ويظهر ذلك فى قوله تعالى : ﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (يوسف : ٨٧).

لذلك فإن مهمة الأنبياء عليهم السلام على مر العصور والأجيال هى : بعث الأمل فى نفوس الناس، وإخراجهم من ظلمات الغفلة والضلالة إلى أنوار الإيمان.

- **فالإيمان يقتضى التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين، ويبعد اليأس عن الإنسان[١].**
- **والإيمان يدعو إلى استنهاض الهمة إلى أقصى مدى، وعدم الانشغال بسفاسف الأمور، وتقديس العمل، والسعى فى الأرض لاستخراج خيراتها، واستنطاق أسرارها، لأن إعلاء كلمة الله فى الأرض تتوقف على الرقى المادى[٢]. وهذا كله ينفض عن الإنسان دواعى اليأس التى يولدها الشيطان، الذى يستغل حب الراحة والدعة عند الإنسان.**
- **والإيمان يرفع الروح المعنوية للإنسان، ويبعد عنه السلبية وانعدام الهمة، وحصرها فى المنافع الشخصية .. وبدون ذلك يقع الناس صرعى كالأموات نتيجة اليأس الذى يقتل الروح المعنوية، ويدعو إلى الإحباط[٣].**

وهكذا فنحن ندين بفضل عظيم لهؤلاء الرسل الكرام، لأنهم عرفونا رب الأنام، وأيقظوا فينا الأمل الذى هو وقود الحياة .. ونسجد شكراً لله الذى تفضل علينا برسالاته ورسله، ليسدد خطانا فى الحياة، وتأخذ روحنا حظها من الأنوار.

(١) الكلمات – ص ٣٥٢ : ٣٥٣.

(٢) صقيل الإسلام – ص ٤٠٢ : ٤٠٣.

(٣) صقيل الإسلام – ص ٥٠٥.

ثامناً : تحرير الإنسان من السجن داخل دائرة نفسه :

إن حب الإنسان لنفسه، وتحرى مصلحته وحده، وحبه لذاته وحده، من الأشكال الخبيثة لـ "أنا والأنانية" .. فالغفلة عن المالك الحقيقى جل جلاله سبب لفرعونية النفس، فيحب الإنسان نفسه الأمارة بالسوء - غير المزكاة - ويعجب بها، ولا يحب أحداً غيرها، وحتى لو أبدى للغير حباً، فإنه لا يحبه من صميم قلبه، بل ربما يحبه لمنافعه، ولما يتوقع منه من متاع .. فهو فى محاولة دائمة لتحبيب نفسه للآخرين، وفى سعى متواصل لإثارة إعجابهم به .. يصرف كل قصور عن نفسه، فلا يحملها أى نقص كان، حتى يقربها إلى التقديس مصداق قول الحق :

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ (الفرقان : ٤٣)

هذا الإنسان يصبح سجين نفسه، مغلوباً على أمره أمام شهواته وهواه ومشاعره، بل قد تبرر له أهواؤه الضالة أموراً يرتكبها، لأجل متعة لا تدوم ساعة، تفضى به أن يلقى فى السجن لسنة كاملة .. وقد يقاسى عشر سنوات من الجزاء العادل، لأجل تسكين روح الثأر لديه، وشهوة الغرور التى لا تستغرق دقيقة واحدة[1].

وهنا تظهر مهمة النبوة، فى مد يد العون إلى الإنسانية، لتحررها من أسر نفوسها وسيئات أعمالها :

- فعرفت الإنسان أن وجوده ليس ملكاً له، فله مالك، فعليه أن يفديه لموجده، الذى يشتريه بثمن غالى.
- وأن مصائبه ليس لها مرارة حقيقية لأنها تمر سريعاً، بل تحلو لأنها تحول، فعليه أن يحول وجهه من الفناء فى الفانى، إلى البقاء بالباقى.

---

(١) اللمعات - ص ٤٤٧.

- وأن لذائذ الدنيا سوف تأتيه، فلا يطش فى طلبها لزوالها بسرعة، ولا يليق بالعاقل تعليق القلب بها[١].
- وعلمت الإنسان كيفية التوجه للخالق، وإظهار العبودية أمام عظمة ربوبيته، وكيفية القيام بالشكر الكلى، والتجمل بمزايا اللطائف الإنسانية، ومعرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وإدراك درجات القدرة الإلهية، ومقارنتها بعجزه وفقره غير المتناهيين[٢].
- وعلمت الإنسان عدم تزكية النفس، وإقامتها مقام الخدمة والعمل والتكليف، ولا يرى من نفسه إلا القصور والنقص والعجز والفقر .. وأن يرى كل محاسنه وكمالاته إحساناً من فاطره الجليل .. فكمال النفس فى معرفة عدم كمالها، وقدرتها فى عجزها أمام الله، وغناها فى فقرها إليه.
- وعلمت الإنسان التذكر فى الموت، فهذا يذكره دائماً بموجده، وينفى عن النفس توهم أنها حرة مستقلة، وبالتالى ينفى تمردها وعصيانها حيال معبودها الحق، ويتوجه بها إلى جهة الإيجاد والوجود والخير[٣].

وهكذا بتعاليم الرسل والأنبياء، الوافدة إلينا من السماء، يستطيع الإنسان أن يتحرر من السجن داخل نفسه، ويحلق إلى أعلى الآفاق، حيث لا بين ولا أين، ولا جهة ولا قرار، بل أنوار الواحد القهار.

---

(١) المثنوى – ص ٢٢١.
(٢) الكلمات – ص ١٣٧ : ١٤٠.
(٣) الكلمات – ص ٥٥٦ : ٥٥٨.

تاسعاً : الاحتياج إلى مواجهة قوى الشر :

يرى الإمام النورسى ﷺ : أن النبوة فى البشرية فذلكة الخير (أى مجمله)، وخلاصة الكمال وأساسه، وأن الدين الحق فهرس السعادة، وأن الإيمان حسن منزه وجمال مجرد .. وحيث أن حسناً ساطعاً، وفيضاً واسعاً سامياً، وحقاً ظاهراً، وكمالاً فائقاً مشاهد فى هذا العالم، فبالبداهة يكون الحق والحقيقة فى جانب النبوة، وفى يد الأنبياء عليهم السلام، وتكون الضلالة والشر والخسارة فى مخالفيهم[1].

وبذلك فإن بعد الإنسان عن مصادر النور الربانية، يجعله عرضة لقوى الشر من شياطين الإنس والجن .. فإذا ابتلى الإنسان بهمزات هؤلاء، فإنه قد يتعرض إلى هزات نفسية قد تودى به، ولذلك فمن رحمة الله علينا أن جعلنا نلجأ إليه، ونستعين به من شر هؤلاء فى قوله تعالى :

﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾

(المؤمنون : ٩٧-٩٨)

وتعريف تلك الهمزات : هى الخواطر السيئة الفاسدة التى يلقيها الشيطان فى القلب والخيال، مما يسبب توتر الأعصاب والأوهام. وقد يؤدى ذلك إلى اليأس والعلل، التى تودى بالإنسان إلى الهلاك، إذا لم يعرف الإنسان حقيقتها، ولم يسبر أغوارها .. فهى أشبه بالمصيبة تبدأ صغيرة، ثم تكبر شيئاً فشيئاً، على قدر اهتمام المرء بها، مما يجعله يدور فى دوامات لا متناهية من القلق والدمار النفسى.

أما إذا عرف المرء حقيقتها، وواجهها بنور الإيمان، فإنها تتلاشى وتضمحل، فالجهل مجلبة للوساوس، بينما العلم برسالة الأنبياء دافع لشرها .. لأن

---

(١) اللمعات – ص ١٩٤.

المؤمن يلجأ إلى حصن حصين وركن متين، ويعتبر دائماً بقول الحق : ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ (النساء : ٧٦).

وفى رد على سؤال عن الحكمة فى ابتلاء المؤمنين بهذه الوساوس المزعجة للنفس المؤلمة للقلب .. أجاب الإمام النورسى :

إننا إذا ما نحينا الإفراط والغلبة جانباً، فإن الوسوسة تكون حافزاً للتيقظ وداعية للتحرى، ووسيلة للجدية، وطاردة لعدم المبالاة، ودافعة للتهاون .. ولأجل هذا كله جعل العليم الحكيم الوسوسة نوعاً من سوط تشويق، وأعطاه بيد الشيطان كى يحث به الإنسان فى دار الامتحان وميدان السباق إلى تلك الحكم، وإذا ما أفرط فى الأذى، فررنا إلى العليم الحكيم وحده مستصرخين : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[١].

وهكذا فإن قوى الشر تكون بالنسبة للمؤمن رفع درجات، إذا اتبع تعاليم الأنبياء .. وفى نفس الوقت تكون تلك القوى بالنسبة للكافر الضال دركات فى الضلال إلى هاوية الجحيم والعياذ بالله.

فالمؤمن يعتقد أنه "لا إله إلا الله" أى لا خالق ولا رازق إلا هو، النفع والضر بيده، وأنه حكيم لا يعمل عبثاً، كما أنه رحيم واسع الرحمة والإحسان .. لذا يتحصن أمام كل مصيبة وكل قوى الشر بالتوكل على الله، فيمنحه هذا التوكل والاستناد الأمان التام .. فلو أصبحت الكرة الأرضية قنبلة مدمرة وانفجرت، فربما لا تخيف عابداً لله ذا قلب منور، بل قد ينظر إليها أنها خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، ويتملاها بإعجاب ومتعة .. بينما الفاسق ذو القلب الميت، ولو كان فيلسوفاً ممن يعد ذا عقل راجح، إذا رأى فى الفضاء نجماً مذنباً يعتريه الخوف ويرتعش هلعاً، ويتساءل بقلق : ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا ؟ فيتردى فى

(١) الكلمات - ص ٣٠٣ : ٣٠٩.

وادى الأوهام .. ولقد ارتعد الأمريكان يوماً من نجم مذنب ظهر فى السماء، حتى هجر الكثيرون مساكنهم أثناء ساعات الليل.

فما أحوج روح البشر العاجزة الضعيفة إلى حقائق العبادة والتوكل، وإلى التوحيد والاستسلام .. فمهما يكن للعبادة من حمل ثقيل ظاهراً، إلا أن لها فى معناها راحة وخفة عظيمتين لا توصفان[1].

فاللهم لك الحمد بقدر عظمة ذاتك على بعثة أنبيائك، لتحمينا من كل عثرات الدنيا والآخرة .. وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وكل من اتبع سنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

(١) الكلمات – ص ١٣.

الفصل الرابع

الفرق بين النبوة والفلسفة فى إثراء الفكر الإنسانى

إذا قارنا بين النبوة والفلسفة فى إثراء الفكر الإنسانى، سنجد أن الفرق بينهما مثل الثريا والثرى .. حيث النبوة تهدف إلى رفع الإنسان من وهدة الثرى إلى أعلى عليين، لتحلق روحه فى أنوار رب العالمين .. أما الفلسفة فهى سجن رهيب لروح الإنسان، تجعله يتثاقل إلى الأرض، ويتيه فى خضم الأسباب المادية، والأطماع النفسية.

فإذا تساءل سائل : لماذا هذا الفارق الرهيب فى نتائج كل من المسلكين ؟ فالإجابة على ذلك تكمن فى نظرة كل منهما إلى جوهر الإنسان، وأسرار "أنا" التى أودعها الله فيه .. فتعامل النبوة مع الإنسانية تنبع من فهمهم الحق لما تحمله "أنا" من أسرار إلهية، وبالتالى فهم يحاولون أن يبرزوا ما فيها من أنوارها، ويخمدوا ظلماتها .. وتلك هى الرسالة السامية التى بعثوا من أجلها.

أما الفلسفة فتتعامل مع "أنا" بالمعنى الاسمى، تاركة وظيفتها الفطرية، مما يولد فى الإنسان جميع أنواع الشرك والشرور والضلالات، وتبعده عن رب الأرضين والسماوات.

ولكى نسهب القول بعد الإيجاز، فعلينا أن نقتطف بعض الثمرات النيرة من رياض رسائل النور القيمة.

ماهية النفس البشرية "تعريف أنا" :

يقول الإمام النورسى رحمه الله فى تعريف "أنا" :

إن الله جلّ جلاله وضع بيد الإنسان أمانةً هى : "أنا" الذى ينطوى على إشارات ونماذج، يستدل بها على حقائق أوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة. أى يكون "أنا" وحدة قياسية تُعرف بها أوصاف الربوبية وشؤون الألوهية.

أما كيف يكون ذلك ؟ فإن الشىء المطلق والمحيط، لا يكـون لـه حـدود ولا نهاية، فلا يُعطى له شكل ولا يُحكَم عليه بحكم، وذلك لعدم وجود وجه تعين وصورة له؛ لذا لا تُفهم حقيقة ماهيته .. فمثلاً : الضياء الدائم الذى لا يتخلله ظلام، لا يُشعَر به ولا يُعرَف وجوده، إلا إذا حُدّد بظلمة حقيقية أو موهومة.

وهكذا، فـإن صفـات اللـه سبحانه وتعـالى – كـالعلم والقـدرة – وأسـماءه الحسنى – كالحكيم والرحيم – لأنها مطلقـة لا حـدود لهـا، ومحيطـة بكـل شـىء، لا شريك لها ولا ندّ، فلا تُعرف ماهيتها، ولا يُشعر بها؛ لذا لابد من وضع حدّ فرضـى وخيالى لتلك الصفات والأسماء المطلقة، ليكون وسيلة لفهمهـا – حيث لا حدود ولا نهاية حقيقية لها – وهذا ما تفعله "الأنانية" أى ما يقوم به "أنا"؛ إذ يتصـور فـى نفسـه ربوبية موهومة، ومالكية مفترضة وقدرة وعلماً، فيحدّ حدوداً معينة، ويضع بها حـداً موهوماً لصفات محيطة وأسماء مطلقة.

فمثلاً : يفهم بربوبيته الموهومـة التـى يتصورهـا فـى دائـرة مُلكـه، ربوبيـة خالقه المطلقة سبحانه وتعالى فى دائرة الممكنات.

ويدرك بمالكيته الظاهرية، مالكيةَ خالقه الحقيقيـة، فيقـول : كمـا أننـى مـالك لهذا البيت، فالخالق سبحانه كذلك مالك لهذا الكون .. ويعلم بعلمه الجزئى، علم الله المطلق.

ويعرف بمهارته المكتسبة الجزئية، بدائع الصانع الجليل، فيقول مثلاً : كمـا أننى شيدت هذه الدار ونظّمتها، كذلك لابد من منشئ لدار الدنيا ومنظّم لها.

وهكذا .. فقد اندرجت فى "أنا" آلاف الأحوال والصفات والمشاعر المنطوية على آلاف الأسرار المغلقة، التى تستطيع أن تدل وتبيّـن – إلـى حدٍ مـا – الصفـات الإلهية وشؤونها الحكيمة كلها.

ثم أن ماهية "أنا" حرفية، أى يدل على معنىً فى غيره، فربوبيته خيالية، ووجوده ضعيف وهزيل، إلى حد لا يطيق أن يحمل بذاته أى شىء كان، ولا يطيق أن يُحمل عليه شىء، بل هو ميزان ليس إلا؛ يبين صفات الله تعالى، التى هى مطلقة ومحيطة بكل شىء، بمثل ما يبين ميزانُ الحرارة وميزان الهواء والموازين الأخرى مقادير الأشياء ودرجاتها.

فالذى يعرف ماهية "أنا" على هذا الوجه، ويذعن له، ثم يعمل وفق ذلك، وبمقتضاه، يدخل ضمن بشارة قوله تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ (الشمس : ٩) ويكون قد أدى الأمانة حقها، فيدرك بمنظار "أنا" حقيقة الكائنات والوظائف التى تؤديها. وعندما ترد المعلومات من الآفاق الخارجية إلى النفس، تجد فى "أنا" ما يصدقها، فتستقر تلك المعلومات علوماً نورانية، وحكمة صائبة فى النفس، ولا تنقلب إلى ظلمات العبثية.

وحينما يؤدى "أنا" وظيفته على هذه الصورة، يترك ربوبيته الموهومة ومالكيته المفترضة - التى هى وحدة قياس ليس إلا - ويفوّض المُلكَ لله وحده قائلاً: له الملك، وله الحمد، وله الحكم وإليه ترجعون، فيلبس لباس عبوديته الحقّة، ويرتقى إلى مقام أحسن تقويم.

ولكن إذا نسى "أنا" حكمة خلقه، ونظر إلى نفسه بالمعنى الاسمى، تاركاً وظيفته الفطرية، معتقداً بنفسه أنه المالك، فقد خان الأمانة، ودخل ضمن النذير الإلهى: ﴿وقد خاب من دساها﴾ (الشمس : ١٠).

وهكذا فإن إشفاق السماوات والأرض والجبال من حمل الأمانة، ورهبتهن من شرك موهوم مفترض، إنما هو من هذا الوجه من "الأنانية" التى تولِّد جميع أنواع الشرك والشرور والضلالات[١].

---

(١) الكلمات - ص ٦٣٥ : ٦٣٨.

كيف نظر كل من النبوة والفلسفة إلى "أنا" ؟

إن "أنا" له وجهان : وجه أخذته النبوة، ووجه أخذته الفلسفة .. **فالوجه الذى أخذته النبوة** : هو منشأ العبودية الخالصة لله، يعرف الإنسان المؤمن : أنه عبد الله، ومطيع لمعبوده.

ويفهم: أن ماهيته حرفية، أى دال على معنى فى غيره .. ويعتقد: أن وجوده تبعى، أى قائم بوجود غيره وبإيجاده .. ويعلم: أن مالكيته للأشياء وهمية، أى: أن له مالكية مؤقتة ظاهرية بإذن مالكه الحقيقى .. وحقيقته ظلية، ليست أصيلة، أى أنه مخلوق هزيل، وظل ضعيف، يعكس تجلياً لحقيقة واجبة حقة.

أما وظيفته فهى: القيام بطاعة مولاه، طاعة شعورية كاملة، لكونه ميزاناً لمعرفة صفات خالقه، ومقياساً للتعرف على شؤونه سبحانه.

هكذا نظر **الأنبياء** والمرسلون عليهم السلام، ومن تبعهم من الأصفياء والأولياء، إلى "أنا" بهذا الوجه. وشاهدوه على حقيقته هكذا. فأدركوا الحقيقة الصائبة، وفوضوا المُلك كله إلى مالك الملك ذى الجلال، وأقرّوا جميعاً، أن ذلك المالك جلَّ وعلا لا شريك له ولا نظير، لا فى ملكه ولا فى ربوبيته ولا فى ألوهيته، وهو المتعال الذى لا يحتاج إلى شىء، فلا معين له ولا وزير، بيده مقاليد كل شىء، وهو على كل شىء قدير. وما **"الأسباب"** إلا أستار وحُجب ظاهرية، تدل على قدرته وعظمته .. وما **"الطبيعة"** إلا شريعته الفطرية، ومجموعة قوانينه الجارية فى الكون، إظهاراً لقدرته وعظمته جلَّ جلاله.

تلك هى **نظرة النبوة للإنسان**، لذلك أثمرت ثمرات يانعة طيبة فى بستان الكرة الأرضية، ومدتها إلى البشرية، فتدلّت قطوفاً دانية من غصن القوة العقلية: أنبياء ومرسلون وصديقون وأولياء صالحون .. كما أثمرت فى غصن القوة الدافعة:

حكاماً عادلين، وملوكاً طاهرين طهر الملائكة .. وأثمرت فى غصن القوة الجاذبة: كرماء وأسخياء ذوى مروءة وشهامة، فى حسن سيرة وجمال صورة ذات عفة وبراءة .. حتى أظهرت تلك الشجرة المباركة : أن الإنسان هو حقاً أكرم ثمرة لشجرة الكون.

أما الوجه الثانى : فقد اتخذته الفلسفة، وقد نظرت إلى "أنا" بالمعنى الاسمى. أى تقول : إن "أنا" يدل على نفسه بنفسه .. وتقضى أن معناه فى ذاته، ويعمل لأجل نفسه .. وتتلقى أن وجوده أصيل ذاتى - وليس ظلاً - أى له ذاتية خاصة به .. وتزعم أن له حقاً فى الحياة، وأنه مالك حقيقى فى دائرة تصرفه، وتظن زعمها حقيقة ثابتة .. وتفهم أن وظيفته هى الرقى والتكامل الذاتى الناشئ من حب ذاته.

وهكذا أسندوا مسلكهم إلى أسس فاسدة كثيرة، وبنوا على تلك الأسس المنهارة الواهية. وقد أُثبت بقطعية تامة : مدى تفاهة تلك الأسس، ومدى فسادها فى رسائل كثيرة، ولا سيما فى "الكلمات" وبالأخص فى "الكلمة الثانية عشرة" و"الخامسة والعشرين" الخاصة بالمعجزات القرآنية.

ولقد اعتقد عظماء الفلسفة وروادها ودهاتها، أمثال أفلاطون وأرسطو وابن سينا والفارابى - بناء على تلك الأسس الفاسدة - بأن الغاية القصوى لكمال الإنسانية هى "التشبه بالواجب"! أى بالخالق جلّ وعلا، فأطلقوه حكماً فرعونياً طاغياً، ومهدوا الطريق لكثير من الطوائف المتلبسة بأنواع من الشرك، أمثال: عَبدة الأسباب، وعَبدة الأصنام، وعَبدة الطبيعة، وعَبدة النجوم .. وذلك بتهييجهم "الأنانية" لتجرى طليقة فى أودية الشرك والضلالة، فسدّوا سبيل العبودية إلى الله، وغلّقوا أبواب العجز والضعف والفقر والحاجة والقصور والنقص، المندرجة فى فطرة الإنسان، فضلوا فى أوحال الطبيعة، ولم ينجوا من حمأة الشرك كلياً، ولا اهتدوا إلى باب الشكر الواسع.

بينما الذين هم فى مسار النبوة : فقد حكموا حكماً ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، وقضوا: أن الغاية القصوى للإنسانية، والوظيفة الأساسية للبشرية هى: التخلق بالأخلاق الإلهية، أى التحلى بالسجايا السامية والخصال الحميدة - التى يأمر بها الله سبحانه، وأن يعلم الإنسان عجزه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفه فيحتمى بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبّح ويقدّس كماله تعالى.

وهكذا فلأن الفلسفة العاصية للدين قد ضلت ضلالاً بعيداً، صار "أنا" ماسكاً بزمام نفسه، مسارعاً إلى كل نوع من أنواع الضلالة، وتشتت عقل الإنسان أى تشتيت[1].

نتائج نظرة النبوة والفلسفة إلى "أنا" :

تولد من الأسس الصائبة لنظرة النبوة إلى "أنا" بوجهها المشرق المتجه إلى الذات العلية، عدة نتائج، تختلف كلية عن النتائج التى نشأت من الأسس الفاسدة لمسلك الفلسفة .. ذكرها الإمام النورسى ﷺ فيما يلى :

النتيجة الأولى :

من القواعد المقررة للنبوة فى حياة الإنسان الشخصية، التخلق بأخلاق الله .. أى كونوا عباد الله المخلصين، متحلين بأخلاق الله، محتمين بحماه، معترفين فى قرارة أنفسكم بعجزكم وفقركم وقصوركم.

---

(١) المثنوى - ص ٣٢٧ : ٣٢٩، الكلمات - ص ٦٤٠ : ٦٤٣.

فأين هذه القاعدة الجليلة من قول الفلسفة: "تشبهوا بالواجب"! التى تقررها غايةً قصوى للإنسانية!

أين ماهية الإنسان، التى عجنت بالعجز والضعف والفقر والحاجة غير المحدودة، من ماهية واجب الوجود، وهو الله القدير القوى الغنى المتعال!!

النتيجة الثانية :

من القواعد الثابتة للنبوة فى الحياة الاجتماعية: أن "التعاون" دستور مهيمن على الكون، ابتداءً من الشمس والقمر إلى النباتات والحيوانات، فترى النباتات تمد الحيوانات، والحيوانات تمد الإنسان، بل ذرات الطعام تمدّ خلايا الجسم وتعاونها.

فأين هذا الدستور القويم دستور "التعاون" وقانون الكرم وناموس الإكرام، من دستور "الصراع" الذى تقول به الفلسفة، من أنه الحاكم على الحياة الاجتماعية، علماً أن "الصراع" ناشئ فقط لدى بعض الظلمة والوحوش الكاسرة، من جراء سوء استعمال فطرتهم، بل أوغلت الفلسفة فى ضلالها حتى اتخذت دستور "الصراع" هذا حاكماً مهيمناً على الموجودات كافة، فقررت ببلاهة متناهية : "أن الحياة جدال وصراع".

النتيجة الثالثة :

من النتائج المثلى للنبوة ومن قواعدها السامية فى التوحيد: أن "الواحد لا يصدر إلا عن الواحد"، أى أن كل ما له وحدة لا يصدر إلا عن الواحد؛ إذ ما دامت فى كل شىء، وفى الأشياء كلها، وحدة ظاهرة، فلابد أنها من إيجاد ذات واحدة. بينما دستور الفلسفة القديمة وعقيدتها هو "أن الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد" أى لا يصدر عن ذات واحدة إلا شىء واحد، ثم الأشياء الأخرى تصدر بتوسط الوسائط. هذه القاعدة للفلسفة القديمة تعطى للأسباب القائمة والوسائط نوعاً من الشراكة فى

الربوبية، وتُظهر أن القدير على كل شيء، والغنى المطلق والمستغنى عن كل شيء بحاجة إلى وسائط عاجزة! بل ضلوا ضلالاً بعيداً، فأطلقوا على الخالق جلّ وعلا اسم مخلوق، وهو "العقل الأول"! وقسمّوا سائر ملكه بين الوسائط، ففتحوا الطريق إلى شرك عظيم.

فأين ذلك الدستور التوحيدى للنبوة، من هذه القاعدة للفلسفة القديمة السقيمة، الملوثة بالشرك والملطخة بالضلالة ؟

فإن كان الإشراقيون الذين هم أرقى الفلاسفة والحكماء فهماً، يتفوهون بهذا السخف من الكلام، فكيف يكون يا ترى كلام من هم دونهم فى الفلسفة والحكمة، من ماديين وطبيعيين ؟

النتيجة الرابعة :

أنه من الدساتير الحكيمة للنبوة: أن لكل شىء حِكَماً كثيرة ومنافع شتى، حتى أن للثمرة من الحِكَم ما يُعدّ بعدد ثمرات الشجرة، كما تُفهم من الآية الكريمة ﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده﴾ (الإسراء : ٤٤) فإن كانت هناك نتيجة واحدة – لخلق ذى حياة – متوجهة إلى المخلوق نفسه، وحكمة واحدة من وجوده تعود إليه، فإن آلافاً من النتائج تعود إلى خالقه الحكيم، وآلافاً من الحكم تتوجه إلى فاطره الجليل.

أما دستور الفلسفة فهو: "أن حكمة خلق كل كائن حى وفائدته متوجهة إلى نفسه، أو تعود إلى منافع الإنسان ومصالحه"! هذه القاعدة تسلب من الموجودات حكماً كثيرة أنيطت بها، وتعطى ثمرة جزئية، كحبة من خردل إلى شجرة ضخمة هائلة، فتحوّل الموجودات إلى عبث لا طائل من ورائه.

فأين تلك الحكمة الصائبة من هذه القواعد الفاسدة للفلسفة، الفارغة من الحكمة، التى تصبغ الوجود كله بالعبث!.

وبعد .. فيمكنك أن تقيس على منوال هذه الأمثلة الأربعة آلافاً من النماذج والأمثلة، وقد أشرنا إلى قسم منها فى رسالة "اللوامع"[1].

أثر الفلسفة على تشتت الفكر الإنسانى :

نظراً لاستناد الفلسفة إلى مثل هذه الأسس السقيمة ولنتائجها الوخيمة، فإن فلاسفة الإسلام الدهاة، الذين غرّهم مظهر الفلسفة البراق، فانساقوا إلى طريقها، كابن سينا والفارابى، لم ينالوا إلا أدنى درجة الإيمان، درجة المؤمن العادى، بل لم يمنحهم حجة الإسلام الإمام الغزالى حتى تلك الدرجة.

وكذا أئمة المعتزلة، وهم من علماء الكلام المتبحرين، فلأنهم افتتنوا بالفلسفة وزينتها، وأوثقوا صلتهم بها، وحكّموا العقل، لم يظفروا سوى درجة المؤمن المبتدع الفاسق.

وكذا أبو العلاء المعرى الذى هو من أعلام أدباء المسلمين والمعروف بتشاؤمه، وعمر الخيام الموصوف بنحيبه اليتمى، وأمثالهما من الأدباء الأعلام، ممن استهوتهم الفلسفة، وانبهرت نفوسهم الأمارة بها .. فهؤلاء .. قد تلقوا صفعة تأديب ولطمة تحقير وتكفير، من قبل أهل الحقيقة والكمال، فزجروهم قائلين: "أيها السفهاء أنتم تمارسون السفه وسوء الأدب، وتسلكون سبيل الزندقة، وتربّون الزنادقة فى أحضان أدبكم!".

ثم إن من نتائج الأسس الفاسدة للفلسفة: أن "أنا" الذى ليس له فى ذاته إلا ماهية ضعيفة كأنه هواء أو بخار، لكن بشؤم نظر الفلسفة، ورؤيتها الأشياء بالمعنى

(١) الكلمات – ص ٦٤٣ : ٦٤٥.

الاسمى، يتميع. ثم بسبب الألفة والتوغل فى الماديات والشهوات كأنه يتصلب، ثم تعتريه الغفلة والإنكار فتتجمد تلك "الأنانية". ثم بالعصيان - لأوامر الله - يتكدر "أنا" ويفقد شفافيته ويصبح قاتماً. ثم يستغلظ شيئاً فشيئاً حتى يبتلع صاحبه. بل لا يقف "أنا" عند هذا الحد، وإنما ينتفخ ويتوسع بأفكار الإنسان، ويشرع بقياس الناس، وحتى الأسباب، على نفسه، فيمنحها فرعونية طاغية - رغم رفضها واستعاذتها منها - وعند ذلك يأخذ طور الخصم للأوامر الإلهية فيقول: ﴿من يحي العظام وهي رميم﴾ (يس : ٧٨)، وكأنه يتحدى الله عزّ وجلّ، ويتهم القدير على كل شىء بالعجز، ثم يبلغ به الأمر أن يتدخل فى أوصاف الله الجليلة، فينكر أو يحرّف أو يردّ كل ما لا يلائم هواه، أو لا يعجب فرعونية نفسه. فمثلاً :

أطلقت طائفة من الفلاسفة على الله سبحانه وتعالى : اسم "الموجَب بالذات" فنفوا الإرادة والاختيار منه تعالى، مكذّبين شهادة جميع الكون على إرادته الطليقة.

فيا سبحان الله! ما أعجب هذا الإنسان! إن الموجودات قاطبة من الذرات إلى الشموس لتدل دلالة واضحة على إرادة الخالق الحكيم؛ بتعيّناتها، وانتظامها، وحِكَمها، وموازينها، كيف لا تراها عين الفلسفة؟ أعمى الله أبصارهم!

وادعت طائفة أخرى من الفلاسفة: "أن العلم الإلهي لا يتعلق بالجزئيات" نافين إحاطة علم الله سبحانه بكل شىء، رافضين شهادة الموجودات الصادقة على علمه المحيط بكل شىء.

ثم أن الفلسفة تمنح التأثير للأسباب، وتعطى بيد الطبيعة الإيجاد والإبداع، فلا ترى الآيات المتلألئة على كل موجود، الدالة على الخالق العظيم - كما أثبت فى "الكلمة الثانية والعشرين" - فضلاً عن أنها تسند خلق قسم من الموجودات، التى هى مكاتيب إلهية صمدانية، إلى الطبيعة العاجزة الجامدة الفاقدة للشعور، والتى ليست

فى يديها إلا المصادفة العشواء والقوة العمياء، جاعلة لها – أى للطبيعة – مصدرية فى خلق الأشياء، وفاعلية فى التأثير! فحجبت آلاف الحِكَم المندرجة فى الموجودات.

ثم أن الفلسفة لم تهتد إلى باب الآخرة الواسع، فأنكرت الحشر، وادعت أزلية الأرواح .. علماً أن الله عزّ وجلّ بجميع أسمائه الحسنى، والكون بجميع حقائقه والأنبياء والرسل الكرام عليهم السلام، بجميع ما جاءوا من الحقائق، والكتب السماوية بجميع آياتها الكريمة .. تبيّن الحشر والآخرة، كما أثبتناه فى الكلمة العاشرة (الحشر).

وهكذا يمكنك أن تقيس سائر مسائل الفلسفة على هذه الخرافات السخيفة.

أجل! لكأن الشياطين اختطفوا عقول الفلاسفة الملحدين بمنقار "أنا" ومخاليبه وألقوها فى أودية الضلالة، ومزقوها شر ممزق.

فـ "أنا" فى العالم الصغير – الإنسان – كالطبيعة فى العالم الكبير، كلاهما من الطواغيت: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ (البقرة : ٢٥٦)[١].

هل سعدت الإنسانية بالفلسفات الأوروبية ؟

هذا السؤال يجيب عليه إمامنا الجليل بإسهاب، فى حوار معنوى مع أوروبا، بصفتها منبع العلوم الفلسفية. فيقول ﷺ :

حينما سار "سعيد الجديد" فى طريق التأمل والتفكر، انقلبت تلك العلوم الأوروبية الفلسفية وفنونها، التى كانت مستقرة إلى حدّ ما فى أفكار "سعيد القديم" إلى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلات كثيرة فى تلك السياحة القلبية. فما

(١) الكلمات – ص ٦٤٥ : ٦٤٧.

كان من "سعيد الجديد" إلا القيام بتمخيض فكره، والعمل على نفضه من أدران الفلسفة المزخرفة، ولوثات الحضارة السفيهة. فرأى نفسه مضطراً إلى إجراء المحاورة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوروبا، لكبح جماح ما فى روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوروبا، فهى محاورة مقتضبة من ناحية، ومُسهبةٌ من ناحية أخرى.

ولئلا يُساء الفهم لابد أن ننبه : أن أوروبا اثنتان :

إحداها : هى أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأدّت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعات وعلوم، تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب – فى هذه المحاورة – هذا القسم من أوروبا. وإنما أخاطب أوروبا **الثانية**، تلك التى تعفّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية، وفسدت بالمادية الجاسية، وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهّمت مساوءها فضائل. فساقت البشرية إلى السفاهة، وأردتها الضلالة والتعاسة.

ولقد خاطبتُ فى تلك السياحة الروحية: الشخصية المعنوية الأوروبية، بعد أن استثنيت محاسن الحضارة وفوائد العلوم النافعة، فوجّهت خطابى إلى تلك الشخصية التى أخذت بيدها الفلسفة المضرّة التافهة، والحضارة الفاسدة السفيهة .. وخاطبتها قائلاً :

يا أوروبا الثانية! اعلمى جيداً أنك قد أخذت بيمينك الفلسفة المضلّة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرّة السفيهة، ثم تدّعين أن سعادة الإنسان بهما. ألا شُلّت يداك، وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالاً عليك، وستكون.

أيتها الروح الخبيثة التى تنشر الكفر وتبث الجحود! تُرى هل يمكن أن يسعد إنسان بمجرد تملكه ثروة طائلة، وترفله فى زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب فى روحه وفى وجدانه وفى عقله وفى قلبه بمصائب هائلة؟ وهل يمكن أن

نطلق عليه أنه سعيد؟! ألا ترين أن من يئس من أمر جزئى، وانقطع رجاؤه من أمل وهمى، وخاب ظنه من عمل تافه، كيف يتحول خياله العذب مراً علقماً، وكيف يتعذب مما حوله من أوضاع لطيفة، فتضيق عليه الدنيا كالسجن بما رحُبت!. فكيف بمن أُصيب بشؤمك بضربات الضلالة فى أعمق أعماق قلبه، وفى أغوار روحه، حتى انقطعت - بتلك الضلالة - جميع آماله، فانشقت عنها جميع آلامه .. فأى سعادة يمكنك أن تضمنى لمثل هذا المسكين الشقى؟ وهل يمكن أن يُطلق على من روحه وقلبه يعذبان فى جهنم، وجسمه فقط فى جنة كاذبة زائلة .. أنه سعيد ؟..

لقد أفسدت - أيتها الروح الخبيثة - البشرية حتى طاشت بتعاليمك، فتقاسى منك العذاب المرير، بإذاقتك إياها عذاب الجحيم فى نعيم جنة كاذبة.

فيا أوروبا التى نأتْ عن النصرانية وابتعدت عنها، وانغمست فى السفاهة والضلالة! لقد أهديت بدهائك الأعور كالدجال، لروح البشر حالة جهنمية، ثم أدركت أن هذه الحالة داءٌ عضال لا دواء له. إذ يهوى بالإنسان من ذروة أعلى عليين، إلى درك أسفل سافلين، وإلى أدنى درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لك أمام هذا الداء الوبيل إلا ملاهيك الجذابة، التى تدفع إلى إبطال الحسّ وتخدير الشعور مؤقتاً، وكمالياتك المزخرفة وأهواؤك المنومة ... فتعساً لك ولدوائك، الذى يكون هو القاضى عليك ..

يا أوروبا الثانية الفاسدة! إنك تستندين إلى أسس واهية نخرة، فتزعمين : أن كل كائن حى مالكٌ لنفسه، ابتداءً من أعظم مَلك، وانتهاء إلى أصغر سمك. كلٌ يعمل لذاته فقط، ولأجل نفسه فحسب، ولا يسعى أحدٌ إلا للذاته الخاصة، ولأجل هذا له حق الحياة. فغاية همته وهدف قصده هو: ضمان بقائه واستمرار حياته. ثم أنك ترين "قانون التعاون" جارياً فيما بين المخلوقات امتثالاً لأمر الخالق الكريم، الذى هو واضح جلى فى أرجاء الكون كله، كإمداد النباتات للحيوانات والحيوانات للإنسان، ثم تحسبين هذا القانون والسنّة الإلهية، وتلك التجليات الكريمة الرحيمة المنبعثة من

ذلك التعاون العام، جدالاً وخصاماً وصراعاً، حتى حكمت ببلاهة أن الحياة جدال وصراع!

فيا سبحان الله!! كيف يكون إمداد ذرات الطعام، إمداداً بكامل الشوق لتغذية خلايا الجسم جدالاً وخصاماً؟ بل ما هو إلا سنّة التعاون، ولا يتم إلا بأمر ربّ حكيم كريم!

وأن ما تستندين إليه من "أن كل شيء مالك لنفسه" واضح البطلان. وأوضح دليل عليه هو: أن أشرف الأسباب وأوسعها إرادة واختياراً هو الإنسان. والحال ليس فى يد اختياره، ولا فى دائرة اقتداره، من أظهر أفعاله الاختيارية كالأكل والكلام والتفكر، إلا جزءٌ واحد مُبهَمٌ من بين المائة. فالذى لا يملك واحداً من المائة من مثل هذا الفعل الظاهر، كيف يكون مالكاً لنفسه؟! وإذا كان الأشرف والأوسع اختياراً مغلول الأيدى عن التملك الحقيقى والتصرف التام، فكيف بسائر الحيوانات والجمادات؟ أليس الذى يطلق هذا الحكم "بأن الحيوان مالك لزمام نفسه" أضل من الأنعام وأفقد للشعور من الجمادات؟ [1].

مقارنة بين تلميذ القرآن وتلميذ الفلسفة الأوروبية :

فيا أوروبا! ما ورطك فى هذا الخطأ المشين إلا دهاؤك الأعور، أى ذكاؤك المنحوس الخارق، فلقد نسيت بذكائك هذا ربّ كل شيء وخالقه، إذ أسندت آثاره البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة! وقسّمت مُلك ذلك الخالق الكريم على الطواغيت التى تُعبَد من دون الله .. فانطلاقاً من هذه الزاوية التى ينظر منها دهاؤك الأعور، يضطر كل ذى حياة وكل إنسان أن يصارع وحده ما لا يعد من الأعداء، ويحصل بنفسه على ما لا يحد من الحاجات، بما يملك من اقتدار كذرة، واختيار

(١) اللمعات - ١٧٦ : ١٧٨.

كشعرة، وشعور كلمعة تزول، وحياة كشعلة تنطفئ، وعمر كدقيقة تنقضى، مع أنه لا يكفى كل ما فى يده لواحد من مطالبه. فعندما يصاب - مثلاً - بمصيبة لا يرجو الدواء لدائه إلا من أسباب صم، حتى يكون مصداق الآية الكريمة ﴿وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال﴾ (الرعد : ١٤).

إن الذى يتلقى الدرس منك، ويسترشد بهديك، يصبح "فرعوناً" طاغية .. ولكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أخس الأشياء، ويتخذ كل شيء ينتفع منه رباً له.

وتلميذك هذا "متمرد" أيضاً .. ولكنه متمرد مسكين، إذ لأجل لذةٍ تافهة يقبّل قدَمَ الشيطان، ولأجل منفعة خسيسة يرضى بمنتهى الذل والهوان.

وهو "جبّار" ولكنه جبار عاجز فى ذاته، لأنه لا يجد مرتكزاً فى قلبه يأوى إليه.

إن غاية ما يصبو إليه تلميذك وذروة همّته: تطمين رغبات النفس وإشباع هواها، حتى أنه دسّاس يبحث تحت ستار الحمية والتضحية والفداء عن منافعه الذاتية، فيطمئن بدسيسته وخبثه حرصه ويُشبع نهم غروره، إذ لا يحب حقاً إلا نفسه، بل يضحى بكل شيء فى سبيلها.

أما التلميذ المخلص الخالص للقرآن الكريم: فهو "عبدٌ" ولكنه لا يتنزل لعبادة أعظم مخلوق، فهو "عبدٌ عزيزٌ" لا يرضى حتى بالجنة، تلك النعمة العظمى غاية لعبوديته لله.

وهو "ليّن هيّن" ولكنه لا يتذلل لغير فاطره الجليل، ولغير أمره وإذنه، فهو صاحب همة عليا وعزيمة صادقة.

وهو "فقير" ولكنه مستغن عن كل شيء، بما ادخر له مالكه الكريم من الثواب الجزيل.

وهو "ضعيف" ولكنه يستند إلى قوة سيده المطلقة. فلا يرضى تلميذ **القرآن** الكريم الخالص حتى بالجنة الخالدة مقصداً وغاية له، فكيف به بهذه **الدنيا الزائلة؟** فافهم من هذا مدى التفاوت الكبير والبون الشاسع بين همة هذين التلميذين!.

وكذلك يمكنكم أن تقيسوا مدى الفرق الهائل بين تلاميذ الفلسفة السقيمة وتلاميذ القرآن الحكيم، من حيث مدى التضحية والفداء فى كل منهما بما يأتى :

إن تلميذ الفلسفة يفرّ من أخيه أثرة لنفسه، ويقيم عليه الدعوى .. **أما تلميذ** القرآن فإنه يرى جميع عباد الله الصالحين فى الأرض والسماوات **إخواناً له**، ويشعر من أعماق روحه بأواصر شوق تشدّه نحوهم، فيدعو لهم دعاءً **خالصاً نابعاً** من صميم قلبه (اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات) فهو يسعد بسعادتهم. حتى **أنه** يرى ما هو أعظم الأشياء كالعرش الأعظم والشمس الضخمة، مأموراً مسخراً **مثله**.

ثم يمكنك قياس سموّ الروح وانبساطها لدى التلميذين بما يأتى :

إن القرآن الكريم يمنح تلاميذه نماءاً سامياً للروح، وانبساطاً واسعاً لها، إذ يسلّم إلى أيديهم بدلاً من تسع وتسعين حبة من حبّات المسبحة، سلسلة موكبة من ذرات تسع وتسعين عالماً من عوالم الكون، التى يتجلى فيها تسعٌ وتسعون اسماً من الأسماء الحسنى، ويخاطبهم: هاؤم اقرأوا أورادكم بهذه السلسلة، وهم بدورهم يقرأون أورادهم بتلك المسبحة العجيبة، ويذكرون ربّهم الكريم بأعدادها غير المحدودة.

فإن شئت: فانظر إلى تلاميذ القرآن من الأولياء الصالحين، **أمثال الشيخ** الكيلانى والشيخ الرفاعى والشيخ الشاذلى ﷺ، وانصت إليهم حينما **يقرأون** أورادهم، وانظر كيف أخذوا فى أيديهم سلاسل الذرات، وعدد القطرات، **وأنفاس** المخلوقات، فيذكرون الله بها ويسبّحونه ويقدّسونه .. تأمل كيف يتعالى **ذلك الإنسان** الهزيل الصغير، الذى يصارعه أصغر ميكروب، ويصرعه أدنى كُرْب! **وكيف**

يتسامى فى التربية القرآنية الخارقة، فتنبسط لطائفه وتسطع بفيض إرشادات القرآن، حتى أنه يستصغر أضخم موجودات الدنيا من أن يكون مسبحةً لأوراده، بل يستقل الجنة العظمى أن تكون غاية ذكره لله سبحانه، مع أنه لا يرى لنفسه فضلاً على أدنى شيء من خلق الله .. إنه يجمع منتهى التواضع فى منتهى العزة .. **ومن هنا يمكنك أن تقدّر مدى انحطاط تلاميذ الفلسفة ومدى دناءتهم.**

وهكذا فالحقائق التى تراها الفلسفة السقيمة الأوروبية بدهائها الأعور مشوهةً زائفةً، يراها الهدى القرآنى واضحةً جلية، ذلك النور الذى ينظر إلى كلا العالمين معاً بعينين براقتين نافذتين إلى الغيب، ويشير بكلتا يديه إلى السعادتين، **ويخاطب البشرية :**

أيها الإنسان! إن ما تملكه من نفس ومال ليس ملكاً لك، بل هو أمانةٌ لديك، فمالكُ تلك الأمانة قديرٌ على كل شيء، عليم بكل شيء، رحيمٌ كريم، يشترى منك ملكه الذى عندك ليحفظه لك، لئلا يضيع فى يدك، وسيكافؤك به ثمناً عظيماً، فأنت لست إلا جندياً مكلفاً بوظيفة، فاعمل لأجله واسع باسمه، فهو الذى يرسل إليك رزقك الذى تحتاجه، ويحفظك مما لا تقدر عليه.

إن غاية حياتك هذه ونتيجتها هى: أن تكون مظهراً لتجليات أسماء ذلك المالك، ومعكساً لشؤونه الحكيمة .. وإذا ما أصابتك مصيبةٌ فقل: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ (البقرة : ١٥٦). أى أنا طوع أمر مولاى، فإن كنت قادمة أيتها المصيبة بإذنه وباسمه، فأهلاً ومرحباً بك، فنحن لا محالة راجعون إليه، لا مناص من ذلك. وسنحظى بالمثول بين يديه، فنحن حقاً مشتاقون إليه .. فما دام سيُعتقنا يوماً من تكاليف الحياة، فليكن ذلك على يديك أيتها المصيبة .. أنا مستسلمٌ راض. ولكن إن كان الأمر والإرادة قد صدر إليك منه سبحانه، لأجل الابتلاء والاختبار لمدى محافظتى على الأمانة، ولمدى قيامى بواجباتى، فلا أسلّم ما استطعت أمانة مالكى لأيد غير أمينة. ولا أستسلم لغير أمره ورضاه سبحانه.

ويختتم الإمام النورسى ﷺ كلامه القيم بقوله :

فيا أسفى! ويا ويل من ضلّ بطواغيت الأجانب وعلومهم المادية الطبيعية، ويا خسارة أولئك الذين يقلدونهم تقليداً أعمى، ويتبعونهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع[1].

ونختتم نحن هذا الفصل بقولنا :

إن النبوة هى ارتقاء بالفكر الإنسانى، ليقتبس أنواراً من أسماء الله الحسنى، فيصير ذلك الإنسان: عليماً، حكيماً، خبيراً، رحيماً، صبوراً .... وهكذا إلى آخر الأسماء، لأن النبوة تعلمه كيف يفكر فى ملكوت السماوات والأرض، وكيف تتفتح آفاق فكره على عالم الغيب، وكيف يجاهد أهواءه وشهواته، وكيف يتغلب على همومه وأحزانه، بالارتكاز إلى الركن الركين وهو رب العالمين.

والنبوة تحرر الإنسان من طغيان الأنانية، وتدخله فى دائرة العبودية، التى تمكنه من الجولان بفكره فى عالم الملك والملكوت.

أيوجد بعد هذا إثراء للفكر فى أجلى صوره وأسمى معانيه ؟

إنه الفكر الذى يشع بنور الإيمان، الفكر الذى ينبع من أعلى المدارس وأرقاها .. إنها مدرسة النبوة التى تلقن العبر والدروس من لدن حكيم خبير.

أما الفلسفة فهى قيود للعقل تسجنه داخل دائرة الماديات، حيث يتشتت العقل ويضيع فى تلك المتاهات.

ونردد مع الإمام النورسى رحمه الله، قول الحق عزّ وجلّ فيمن ضل عن سبيل الأنبياء :

---

(١) اللمعات – ١٨٠ : ١٨٤.

﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ (يس : ٣٠)

فاللهم لا تحرمنا من أنوار أنبيائك. واجمعنا بهم مع الأحبة "محمد وصحبه" فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .. إنك لا تخلف الميعاد .. وإنك بالإجابة جدير، وعلى كل شىء قدير .. وصل اللهم على المبعوث رحمة للعالمين، خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الخامس

كمال النبوة فى سيدنا محمد ﷺ

لماذا نال سيدنا محمد ﷺ كمال المحبة الإلهية ؟

إن مالك الملك قد اختار الأرض من الكون، واختار الإنسان من الأرض، ووهب له مكانة سامية، وأولاه الاهتمام والعناية، واختار الأنبياء والأولياء والأصفياء من بين الناس، وهم الذين انسجموا مع المقاصد الربانية، وحببوا أنفسهم إليه بالإيمان والتسليم، وجعلهم أولياءه المحبوبين المخاطبين له، وأكرمهم بالمعجزات والتوفيق فى الأعمال، وأدّب أعداءهم بالصفعات السماوية، واصطفى من بين هؤلاء المحبوبين إمامهم ورمز فخرهم واعتزازهم، ألا وهو محمد ﷺ. فنوَّر بنوره نصف الكرة الأرضية ذات الأهمية، وخُمس البشرية ذوى الأهمية، طوال قرون عدة، حتى كأن الكائنات قد خُلقت لأجله، لبروز غاياتها جميعاً به، وظهورها بالدين الذى بُعث به، وانجلائها بالقرآن الذى أُنزل عليه[1]. فالرسول الكريم محمد الأمين ﷺ هو سبب خلق الأفلاك ووسيلة السعادة فى الدارين، وحبيب رب العالمين.

وهنا يثور لدى البعض هذا التساؤل: لماذا اختص المولى سبحانه وتعالى سيدنا محمد ﷺ بهذا الفضل العظيم والكرم العميم ؟

ويجيب الإمام النورسى رضي الله عنه عن هذا التساول بقوله :

إن لله سبحانه وتعالى جمالاً وكمالاً مطلقين، وإن جميع أنواع الجمال والكمال المنقسمة على الكائنات جميعها، هى أمارات على جماله وكماله، وإشارات إليهما، وعلامات عليهما.

---

(١) الكلمات – ص ١١٢.

وحيث أن كل صاحب جمال وكمال، يحب جماله وكماله بالبداهة، فالله سبحانه وتعالى يحب جماله بحب يليق بذاته الجليلة. وأنه يحب أيضاً أسماءه التى هى شعاعات جماله جلّ وعلا. وإذ أنه يحب أسماءه، فإنه يحب إذن صنعته التى تظهر جمال أسمائه .. ويحب إذن مصنوعاته التى هى مرايا لجماله وكماله .. وإذ إنه يحب ما يبين جماله وكماله، فإنه يحب محاسن مخلوقاته، التى تشير إلى جمال أسمائه وكمالها .. ويشير القرآن الحكيم فى آياته إلى هذه الأنواع الخمسة من المحبة.

وهكذا فالرسول الكريم ﷺ الذى هو أكمل فرد فى مصنوعات الله، وأبرز شخصية فى مخلوقاته .. وهو الذى يقدّر ويعلن عن الصنعة الإلهية بذكر جذاب وتسبيح وتهليل .. وهو الذى فتح بلسان القرآن خزائن جمال الأسماء الحسنى وكمالها .. وهو الذى يبين بياناً ساطعاً – بلسان القرآن – الآيات الكونية الدالة على كمال صانعها .. وهو الذى أدّى وظيفة المرآة للربوبية الإلهية بعبوديته الكلية، حتى حظى بأتم تجليات الأسماء الحسنى كلها، بجامعية ماهيته.

فلأجل ما سبق يصح أن يقال :

إن الجميل ذا الجلال لمحبته جماله يحب محمداً ﷺ الذى هو أكمل مرآة ذات شعور لذلك الجمال.

وأنه سبحانه لمحبته أسمائه يحب محمداً ﷺ الذى هو أجلى مرآة تعكس تلك الأسماء الحسنى. ويحب من يتشبهون بمحمد ﷺ أيضاً، كل حسب درجته.

وأنه سبحانه لمحبته صنعته يحب محمداً ﷺ الذى أعلن عن تلك الصنعة فى أرجاء الكون برمته، حتى جعله فى نشوة وشوق يرن به سمع السماوات، ويثير به البر والبحر شوقاً إليه .. ويحب أيضاً من يتبعونه.

وأنه سبحانه لمحبته مصنوعاته يحب محمداً ﷺ، إذ هو أفضل الناس طراً الذين هم أكمل ذوى الشعور، الذين هم أكمل ذوى الحياة، الذين هم أكمل مصنوعاته سبحانه.

وأنه سبحانه لحبه أخلاق مخلوقاته يحب محمداً ﷺ، إذ هو فى ذروة الأخلاق الحميدة، كما اتفق عليها الأولياء والأعداء، ويحب كذلك من يتشبهون به فى الأخلاق، كل حسب درجته.

بمعنى أن محبة الله قد أحاطت بالكون، كما أحاطت به رحمته، ولهذا فإن أعلى مقام فى الوجوه الخمسة المذكورة ضمن المحبوبين الذين لا حصر لهم، هو مقام خصّ بمحمد ﷺ، ولأجله منح اسم "حبيب الله".

خلاصة القول :

لما كان خالق هذا الكون، يخلق من كل نوع فرداً ممتازاً كاملاً جامعاً، ويجعله مناط فخر وكمال ذلك النوع، فلا شك أنه يخلق فرداً ممتازاً وكاملاً – بالنسبة للكائنات قاطبة – وذلك بتجلى الاسم الأعظم من أسمائه الحسنى. وسيكون فى مصنوعاته فرداً أكمل كالاسم الأعظم فى أسمائه. فيجمع كمالاته المنتشرة فى الكائنات فى ذلك الفرد الأكمل، ويجعله محط نظره.

ولا ريب أن ذلك الفرد سيكون من ذوى الحياة، لأن أكمل أنواع الكائنات هم ذوو الحياة، ويكون من ذوى الشعور، لأن أكمل أنواع ذوى الحياة هم ذوو الشعور .. وسيكون ذلك الفرد الفريد من الإنسان، لأن الإنسان هو المؤهل لما لا يحد من الرقى .. وسيكون ذلك الفرد حتماً محمداً الأمين ﷺ، لأنه لم يظهر أحد فى التاريخ كله مثله، منذ زمن آدم عليه السلام وإلى الآن، ولن يظهر. لأن ذلك النبى الكريم ﷺ قد ضم نصف الكرة الأرضية وخمس البشرية ضمن سلطانه المعنوى وحاكميته، التى دامت ألفاً وثلاثمائة وخمسين عاماً بكمال هيبتها وعظمتها. وأصبح

أستاذاً لجميع أهل الكمال فى جميع أنواع الحقائق، ونال أرقى المراتب فى السجايا الحميدة باتفاق الأصدقاء والأعداء، وتحدى العالم أجمع وحده - فى أول أمره - وأظهر القرآن الكريم الذى يتلوه أكثر من مائة مليون من الناس فى كل دقيقة.

فلابد أن نبياً كريماً كهذا النبى ﷺ هو ذلك الفرد الفريد، لا أحد غيره أبداً. فهو نواة هذا العالم وثمرته. عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام، بعدد أنواع الكائنات وموجوداتها(١).

البراهين القرآنية لتأييد الرسالة المحمدية :

إن الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة والسلام، الذى هو برهان التوحيد الناطق، قد أعلن التوحيد وأظهره بجلاء، وبيّنه للبشرية أبلغ بيان، فى جميع سيرته العطرة، وبكل ما وهبه الله من قوة، فهو الذى يملك بجناحى الرسالة والولاية قوة إجماع وتواتر جميع الأنبياء الذين أتوا قبله، وقوة تواتر وإجماع جميع الأولياء والأصفياء الذين أتوا بعده. وفتح بهذه القوة الهائلة نافذة واسعة عظيمة، سعة العالم الإسلامى، إزاء معرفة الله سبحانه، ولتكون رسالته خاتمة رسالات السماء(٢).

وقد أيده المولى عزّ وجلّ فى ذلك ببراهين قرآنية لا تعد ولا تحصى، علاوة على المعجزات المادية التى أشرنا إليها فى الفصل الأول .. ونذكر من تلك البراهين ما يلى :

- قوله تعالى :

﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا. محمد رسول الله ...﴾ (الفتح : ٢٨-٢٩)

---

(١) الكلمات - ص ٣٩٢ : ٣٩٧.

(٢) الكلمات - ص ٨٣١ : ٨٣٢.

﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت ...﴾ (الأعراف : ١٥٨)

- كرر المولى سبحانه فى القرآن "قصص الأنبياء" عليهم السلام .. فالحكمة فى تكرار قصة موسى عليه السلام – مثلاً – التى لها من الحكم والفوائد ما لعصا موسى، وكذا الحكمة فى تكرار قصص الأنبياء، إنما هى لإثبات الرسالة الأحمدية، وذلك بإظهار نبوة الأنبياء جميعهم، حجةً على أحقية الرسالة الأحمدية وصدقها؛ حيث لا يمكن أن ينكرها إلا من ينكر نبوتهم جميعاً. فذكرها إذن دليل على الرسالة.
- إن منح ذات الرسول الكريم ﷺ أعظم مقام وأسماه فى القرآن الكريم، وجعل (محمد رسول الله) – الذى يتضمن أربعة من أركان الإيمان – مقروناً بـ (لا إله إلا الله) دليل وأى دليل على أن الرسالة المحمدية هى أكبر حقيقة فى الكون، وأن محمداً ﷺ لهو أشرف المخلوقات طراً. وأن الحقيقة المحمدية التى تمثل الشخصية المعنوية الكلية لمحمد ﷺ هى السراج المنير للعالمين كليهما، وأنه ﷺ أهل لهذا المقام الخارق، كما قد أثبت ذلك فى أجزاء رسائل النور، بحجج وبراهين عديدة إثباتاً قاطعاً. نورد هنا واحداً من ألف منها. كما يأتى :

إن كل ما قام به جميع أمة محمد ﷺ من حسنات فى الأزمنة قاطبة، يكتب مثلها فى صحيفة حسناته ﷺ، وذلك حسب قاعدة "السبب كالفاعل".

وأن تنويره لجميع حقائق الكائنات بالنور الذى أتى به، لا يجعل الجن والإنس والملائكة وذوى الحياة فى امتنان ورضى وحدهم، بل يجعل الكون برمته والسماوات والأرض جميعاً راضية عنه، محدثة بفضائله.

وأن ما يبعثه صالحو الأمة – الذين يبلغون المليارات – يومياً من أدعية فطرية مستجابة لا ترد – بدلالة القبول الفعلى المشاهد لأدعية النباتات بلسان الاستعداد، وأدعية الحيوانات بلسان حاجة الفطرة – ومن أدعية الرحمة بالصلاة

والسلام عليه، وما يرسلونه بما ظفروا من مكاسب معنوية وحسنات هدايا، إنما تقدم إليه أولاً.

فضلاً عما يدخل فى دفتر حسناته ﷺ من أنوار لا حدود لها بما تتلوه أمته - بمجرد التلاوة - من القرآن الكريم، الذى فى كل حرف من حروفه - التى تزيد على ثلاثمائة ألف حرف - عشر حسنات وعشر ثمار أخروية، بل مائة، بل ألف من الحسنات ..

- **نعم! إن علام الغيوب سبحانه قد سبق علمه، وشاهد أن الحقيقة المحمدية التى هى الشخصية المعنوية لتلك الذات المباركة ﷺ ستكون كمثال شجرة طوبى الجنة، لذا أولاه فى قرآنه تلك الأهمية العظمى، حيث هو المستحق لذلك المقام الرفيع. وبيّن فى أوامره بأن نيل شفاعته إنما هو باتباعه والاقتداء بسنته الشريفة، وهو أعظم مسألة من مسائل الإنسان. بل أخذ بنظر الاعتبار - بين حين وآخر - أوضاعه الإنسانية البشرية، التى هى بمثابة بذرة شجرة طوبى الجنة[1].**

ولذلك قال الحق تبارك اسمه :

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (آل عمران : ٣١).

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ (التوبة : ١٢٨، ١٢٩).

- **وقوله عزّ وجلّ :**

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (الإسراء : ١).

(١) الكلمات - ص ٥٣٥ : ٥٣٧.

تدل على أنه سبحانه وتعالى دعا عبده إلى حضوره والمثول بين يديه، لينيط بـه مهمـة، ويكلّفه بوظيفة؛ فأسرى بـه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذى هو مجمع الأنبياء. وبعد إجراء اللقاء معهم، وإظهاره بأنه الوارث المطلق لأصول أديان جميع الأنبياء، سيره فى جولة ضمن ملكه، وسياحة ضمن ملكوته، حتى أبلغه سدرة المنتهى، فكان قاب قوسين أو أدنى.

وهكذا فإن تلك السياحة أو السير، وإن كانت معراجاً جزئياً، وأن الذى عُرج به عبد، إلا أن هذا العبد يحمل أمانة عظيمة تتعلق بجميع الكائنات، ومعه نور مبين ينير الكائنات، ويبدل ملامحها، ويصبغها بصبغته، فضلاً عن أن لديه مفتاحاً يستطيع أن يفتح به باب السعادة الأبدية والنعيم المقيم[1].

إلام يدعو هذا النبى الكريم ﷺ ؟

تعال! لنتجرد من قيود الزمان، ولنذهب بأفكارنا إلى عصر النبوة، وبخيالنا إلى تلك الجزيرة العربية كى نحظى بزيارته ﷺ، وهو يزاول وظيفته بكامل عبوديته. إنه يدعو إلى السعادة الأبدية فى صلاة كبرى شاملة، وفى عبادة رفيعة مستغرقة، حتى أن الجزيرة العربية، بل الأرض برمتها، كأنها تصلى مع صلاته، وتبتهل إلى الله بابتهاله الجميل، ذلك لأن عبوديته ﷺ تتضمن عبودية جميع أمته الذين اتبعوه، كما تتضمن – بسر الموافقة فى الأصول – سر العبودية لجميع الأنبياء عليه السلام. فهو يؤم صلاة كبرى، أيما صلاة، ويتضرع بدعاء، ويا له من تضرع رقيق، فى خلق عظيم، كأن الذين تنوروا بنور الإيمان – من لدن آدم عليه السلام إلى الآن وإلى يوم القيامة – اقتدوا به، وأمنوا بدعائه.

---

(١) الكلمات – ص ٤٩٧ : ٤٩٨.

انظر! كيف يدعو الله حاجة عامة كحاجة البقاء والخلود!. هذه الدعوة التى لا يشترك فيها معه أهل الأرض وحدهم، بل أهل السموات أيضاً، لا بل الموجودات كافة. فتقول بلسان الحال : "آمين. اللهم آمين .. استجب يا ربنا دعاءه، فنحن نتوسل بك ونتضرع إليك مثله".

ثم انظر! إنه يسأل تلك السعادة والخلود بكل رقة وحزن، وبكل حب وود، وبكل شوق وإلحاح، وبكل تضرع ورجاء، يُحزن الكون جميعاً ويبكيه، فيسهمه فى الدعاء.

ثم انظر وتأمل! إنه يدعو طالباً السعادة لقصد عظيم، ولغاية سامية .. يطلبها لينقذ الإنسان والمخلوقات جميعاً من التردى إلى هاوية أسفل سافلين، وهو الفناء المطلق والضياع والعبث، ويرفعه إلى أعلى عليين، وهو الرفعة والبقاء، وتقلّد الواجبات، وتسلّم المسؤوليات، ليكون أهلاً لها، ويرقى إلى مرتبة مكاتيب صمدانية.

انظر! كيف أنه يطلب الاستعانة مستغيثاً ببكاء، متضرعاً راجياً من الأعماق، متوسلاً بإلحاح .. حتى كأنه يُسمع الموجودات جميعاً، بل السموات، بل العرش، فيهزّهم وجداً وشوقاً إلى دعائه، ويجعلهم يرددون: آمين .. اللهم آمين.

وانظر! أنه يسأل السعادة والبقاء الأبدى، ويرجوهما من قدير سميع كريم، ومن عليم بصير رحيم، يرى ويسمع أخفى حاجة لأضعف مخلوق، فيتداركه برحمته، ويستجيب له، حتى إن كان دعاءً بلسان الحال.

نعم، إنه يستجيب له ببصيرة ورحمة ويغيثه بحكمة، بما لا تبقى شبهةً بأن تلك الرعاية الفائقة ليست إلا من لدن سميع بصير، وأن ذلك التدبير الدقيق ليس إلا من عند كريم رحيم.

نعم، إن الذى يقود جميع بنى آدم على هذه الأرض متوجهاً إلى العرش الأعظم، رافعاً يديه، داعياً بدعاء شامل لحقيقة العبودية الأحمدية، التى هى خلاصة

عبودية البشرية .. تُرى ماذا يريد؟ ماذا يريد شرف الإنسانية، وفخر الكائنات، وفريد الأزمان والأكوان؟!. لننصت إليه .. إنه يسأل السعادة الأبدية لنفسه ولأمته، إنه يسأل الخلود فى دار البقاء، إنه يسأل الجنة ونعيمها .. نعم، يسألها ويرجوها مع تلك الأسماء الإلهية المتجلية بجمالها فى مرآة الموجودات .. إنه يستشفع تلك الأسماء الحسنى كما ترى.

أرأيت إن لم يكن شىء من أسباب موجبة – لا تعد ولا تحصى – للآخرة ولا شىء من دلائل وجودها، أليس دعاء واحد من هذا النبى الكريم ﷺ يكون سبباً كافياً لإيجاد الجنة .. التى هى سهلة على قدرة خالقنا الرحيم، كسهولة إعادة الحياة إلى الأرض فى أيام الربيع ؟.

نعم، إن الذى جعل سطح الأرض فى الربيع مثالاً للحشر، فأوجد فيه مائة نموذج من نماذجه بقدرته المطلقة، كيف يصعب عليه إيجاد الجنة ؟ .. إذن فكما كانت رسالته ﷺ سبباً لإيجاد دار الامتحان هذه، وصارت بياناً وإيضاحاً لسر "لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك" فإن عبوديته كذلك أصبحت سبباً لخلق تلك الدار السعيدة الأبدية.

فهل من الممكن يا ترى لانتظام العالم البديع الذى حيّر العقول، والصنعة المتقنة، وجمال الربوبية الشاملة فى إطار رحمته الواسعة، أن يقبل قبحاً فظيعاً، وظلماً شنيعاً، وفوضى ضاربة أطنابها، بعدم استجابة ذلك الدعاء، أى أن لا يراعى ولا يسمع ولا ينجز أكثر الرغبات أهمية، وأشدها ضرورة، فى حين أنه يراعى باهتمام بالغ أبسط الرغبات وأصغرها، ويسمع أخفت الأصوات وأدقها، ويقضى لكل ذى حاجة حاجته! كلا ثم كلا ألف ألف مرة، إن مثل هذا الجمال يأبى التشوه، ولن يكون قبيحاً.

فالرسول ﷺ إذن يفتح بعبوديته باب الآخرة مثلما فتح برسالته باب الدنيا[١].

عليـــــه صلـــــوات الرحمـــــن مـــــلء الدنيـــــا ودار الجنـــــان.

رشحات من عظمة سيدنا محمد ﷺ :

إن رسائل النور - كما قلنا - تفيض بالتغنى بحب سيدنا محمد ﷺ وبيان دلائل عظمته وشفقته، ومحبته لله العلى القدير .. وقد اخترنا تلك الرشحات لنروى ظمأنا، وشدة شوقنا نحو الحبيب المصطفى.

يقول الإمام النورسى ﷺ ما نود بعض معرفته عن سيدنا وحبيبنا ونور قلوبنا فى ثلاث عشرة رشحة. نسجلها فيما يلى[٢]:

• الرشحة الأولى :

إن ما يُعرّف لنا ربنا هو ثلاثة معرّفين أدلاّء عظام :

أوله : كتاب الكون، الذى سمعنا شيئاً من شهادته فى ثلاث عشرة لمعة (من لمعات المثنوى العربى النورى).

ثانيه : هو الآية الكبرى لهذا الكتاب العظيم، وهو خاتم ديوان النبوة ﷺ.

ثالثه : القرآن الحكيم.

فعلينا الآن أن نعرف هذا البرهان الثانى الناطق، وهو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ وننصت إليه خاشعين.

---

(١) الكلمات - ص ٧٣ : ٧٦.

(٢) هذه الرشحات ذكرت فى: المكتوبات ص ٢٥٧ : ٢٦٦ والكلمات ص ٢٥٤ : ٢٦٣ والمثنوى العربى النورى ص ٥٥ : ٦٦.

اعلم! أن ذلك البرهان الناطق له شخصية معنوية عظيمة .. فإن قلت: ما هو؟ وما ماهيته؟

قيل لك: هو الذى لعظمته المعنوية صار سطح الأرض مسجده، ومكة محرابه، والمدينة منبره .. وهو إمام جميع المؤمنين، يأتمون به صافين خلفه .. وخطيب جميع البشر، يبيّن لهم دساتير سعاداتهم .. ورئيس جميع الأنبياء، يزكيهم ويصدقهم بجامعية دينه لأساسات أديانهم .. وسيد جميع الأولياء يرشدهم ويربيهم بشمس رسالته .. وقطب فى مركز دائرة حلقة ذكر، تركبت من الأنبياء والأخيار والصديقين والأبرار المتفقين على كلمته الناطقين بها .. وشجرة نورانية عروقها الحيوية المتينة هى الأنبياء بأساساتهم السماوية، وأغصانها الخضرة الطرية، وثمراتها اللطيفة النيرة، هى الأولياء بمعارفهم الإلهامية. فما من دعوى يدعيها إلا ويشهد لها جميع الأنبياء مستندين بمعجزاتهم، وجميع الأولياء مستندين بكراماتهم. فكان على كل دعوى من دعاويه خواتم جميع الكاملين، إذ بينما تراه قال : (لا إله إلا الله) وادعى التوحيد فإذا نسمع من الماضى والمستقبل من الصفين النورانيين – أى شموس البشر ونجومه القاعدين فى دائرة الذكر – عين تلك الكلمة، فيكررونها ويتفقون عليها، مع اختلاف مسالكهم وتباين مشاربهم. فكأنهم يقولون بالإجماع: "صدقت وبالحق نطقت". فأنى لوهم أن يمد يده لرد دعوى تأيدت بشهادات من لا يحد من الشاهدين، الذين تزكيهم معجزاتهم وكراماتهم.

- **الرشحة الثانية :**

اعلم! أن هذا البرهان النورانى الذى دلّ على التوحيد وأرشد البشر إليه، كما أنه يتأيد بقوة ما فى جناحيه نبوةً وولاية من الإجماع والتواتر .. كذلك تصدقه

منات إشارات الكتب السماوية، من بشارات التوراة والإنجيل والزبور وزبر الأولين[١].

وكذلك تصدقه رموز ألوف الإرهاصات الكثيرة المشهودة، وكذا تصدقه بشارات الهواتف الشائعة المتعددة، وشهادات الكهان المتواترة، وكذا تصدقه دلالات معجزاته من أمثال: شق القمر، ونبعان الماء من الأصابع كالكوثر، ومجئ الشجر بدعوته، ونزول المطر فى آن دعائه، وشبع الكثير من طعامه القليل، وتكلم الضب والذئب والظبى والجمل والحجر، إلى ألف من معجزاته، كما بينه الرواة والمحدثون المحققون .. وكذا تصدقه الشريعة الجامعة لسعادات الدارين.

واعلم! أنه كما تصدقه هذه **الدلائل الآفاقية**، كذلك هو الشمس يدل على ذاته بذاته، فتصدقه **الدلائل الأنفسية**، إذ اجتماع أعالى جميع الأخلاق الحميدة فى ذاته بالاتفاق .. وكذا جمع شخصيته المعنوية فى وظيفته أفاضل جميع السجايا الغالية والخصائل النزيهة .. وكذا قوة إيمانه بشهادة قوة زهده وقوة تقواه وقوة عبوديته .. وكذا كمال وثوقه بشهادة سيره، وكمال جديته وكمال متانته، وكذا قوة أمنيته فى حركاته بشهادة قوة اطمئنانه .. تصدقه كالشمس الساطعة فى دعوى تمسكه بالحق وسلوكه على الحقيقة.

- **الرشحة الثالثة :**

اعلم! أن للمحيط الزمانى والمكانى تأثيراً عظيماً فى محاكمات العقول. فإن شئت فتعال لنذهب إلى خير القرون وعصر السعادة النبوية، لنحظى بزيارته الكريمة ﷺ - ولو بالخيال - وهو على رأس وظيفته يعمل. فافتح عينيك وانظر! فإن أول ما يتظاهر لنا من هذه المملكة: شخص خارق، له حسن صورة فائقة، فى

(١) الكلمات - ص ٧٣ : ٧٦.

حسن سيرة رائقة. فها هو آخذٌ بيده كتاباً معجزاً كريماً، وبلسانه خطاباً موجزاً حكيماً، يبلّغ خطبةً أزليةً ويتلوها على جميع بنى آدم، بل على جميع الجن والإنس، بل على جميع الموجودات.

فيا للعجب! ما يقول؟ .. نعم! إنه يقول عن أمر جسيم، ويبحث عن نبأ عظيم، إذ يشرح ويحل اللغز العجيب فى سرّ خلقة العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق فى سر حكمة الكائنات، ويوضح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة المعضلة التى أشغلت العقول وأوقعتها فى الحيرة، إذ هى الأسئلة التى يسأل عنها كل موجود. وهى: من أنت؟ ومن أين؟ وإلى أين؟.

• **الرشحة الرابعة :**

انظر! إلى هذا الشخص النورانى كيف ينشر من الحقيقة ضياءً نوّاراً، ومن الحق نوراً مضيئاً، حتى صيّر ليل البشر نهاراً وشتاءه ربيعاً؛ فكأن الكائنات تبدّل شكلها، فصار العالم ضاحكاً مسروراً بعدما كان عبوساً قمطريراً .. فإذا ما نظرت إلى الكائنات خارج نور إرشاده؛ ترى فى الكائنات مأتماً عمومياً، وترى موجوداتها كالأجانب الغرباء والأعداء، لا يعرف بعضٌ بعضاً، بل يعاديه، وترى جامداتها جنائز دهّاشة، وترى حيواناتها وأناسيها أيتاماً باكين بضربات الزوال والفراق.

فهذه هى ماهية الكائنات عند من لم يدخل فى دائرة نوره. فانظر الآن بنوره، وبمرصاد دينه، وفى دائرة شريعته، إلى الكائنات. كيف تراها؟.. فانظر! قد تبدّل شكل العالم، فتحوّل بيت المأتم العمومى مسجد الذكر والفكر ومجلس الجذبة والشكر، وتحول الأعداء الأجانب من الموجودات أحباباً وإخواناً، وتحول كلّ من جامداتها الميتة الصامتة حيّاً مؤنساً مأموراً مسخراً، ناطقاً بلسان حاله آيات خالقه، وتحوّل ذوو الحياة منها – الأيتام الباكون الشاكون – ذاكرين فى تسبيحاتهم، شاكرين لتسريحهم عن وظائفهم.

• **الرشحة الخامسة :**

لقد تحوّلت بذلك النور حركات الكائنات وتنوعاتها وتغيراتها، من العبثية والتفاهة وملعبة المصادفة إلى مكاتيب ربانية، وصحائف آيات تكوينية، ومرايا أسماء إلهية. حتى ترقّى العالم وصار كتاب الحكمة الصمدانية.

وانظر إلى الإنسان كيف ترقّى من حضيض الحيوانية، الذى هوى إليه بعجزه وفقره، وبعقله الناقل لأحزان الماضى ومخاوف المستقبل، ترقّى إلى أوج الخلافة بتنور ذلك العقل والعجز والفقر. فانظر كيف صارت أسباب سقوطه – من عجز وفقر وعقل – هى أسباب صعوده بسبب تنورها بنور هذا الشخص النورانى.

فعلى هذا، لو لم يوجد هذا الشخص، لسقطت الكائنات والإنسان، وكل شىء إلى درجة العدم؛ لا قيمة ولا أهمية لها. فيلزم لمثل هذه الكائنات البديعة الجميلة، من مثل هذا الشخص الخارق الفائق المعرّف المحقق، فإذا لم يكن هذا فلا تكن الكائنات، إذ لا معنى لها بالنسبة إلينا.

• **الرشحة السادسة :**

فإن قلت: من هذا الشخص الذى نراه قد صار شمساً للكون، كاشفاً بدينه عن كمالات الكائنات؟ وما يقول؟.

قيل لك: انظر واستمع إلى ما يقول: ها هو يُخبر عن سعادة أبدية ويبشّر بها، ويكشف عن رحمة بلا نهاية، ويعلنها ويدعو الناس إليها. وهو دلالُ محاسن سلطنة الربوبية ونظّارها، وكشّاف مخفيّات كنوز الأسماء الإلهية ومعرّفها.

فانظر إليه من جهة وظيفته (رسالته)؛ تره برهان الحق، وسراج الحقيقة، وشمس الهداية، ووسيلة السعادة.

ثم انظر إليه من جهة شخصيته (عبوديته)؛ تره مثال المحبة الرحمانية، وتمثال الرحمة الربانية، وشرف الحقيقة الإنسانية، وأنور أزهر ثمرات شجرة الخلقة.

ثم انظر! كيف أحاط نوره ودينه بالشرق والغرب فى سرعة البرق الشارق، وقد قبل بإذعان القلب ما يقرب من نصف الأرض ومن خمس بنى آدم هدية هدايته، بحيث تُفدى لها أرواحها. فهل يمكن للنفس والشيطان أن يناقشا بلا مغالطة فى مدّعيات مثل هذا الشخص، لا سيما فى دعوى هى أساس كل مدّعياته، وهو: "لا إله إلا الله" بجميع مراتبه؟...

• الرشحة السابعة :

فإن شئت أن تعرف أن ما يحرّكه، إنما هو قوة قدسية، فانظر إلى إجراءاته فى هذه الجزيرة الواسعة! ألا ترى هذه الأقوام المختلفة البدائية فى هذه الصحراء الشاسعة، المتعصبين لعاداتهم، المعاندين فى عصبيتهم وخصامهم، كيف رفع هذا الشخص جميع أخلاقهم السيئة البدائية، وقلعها فى زمان قليل دفعة واحدة؟ وجهّزهم بأخلاق حسنة عالية؛ فصيّرهم معلمى العالم الإنسانى وأساتيذ الأمم المتمدنة.

فانظر! ليست سلطنته على الظاهر فقط؛ بل ها هو يفتح القلوب والعقول، ويسخِّر الأرواح والنفوس، حتى صار محبوب القلوب، ومعلّم العقول، ومربى النفوس، وسلطان الأرواح.

• الرشحة الثامنة :

من المعلوم أن رفع عادة صغيرة – كالتدخين مثلاً – من طائفة صغيرة بالكلية، قد يعسر على حاكم عظيم، بهمة عظيمة، مع أنّا نرى هذا النبى الكريم ﷺ

قد رفع بالكلية، عادات كثيرة، من أقوام عظيمة، متعصبين لعاداتهم، معاندين فى حسيّاتهم، رفعها بقوة جزئية، وهمّة قليلة فى ظاهر الحال، وفى زمان قصير، وغرس بدلها برسوخ تام فى سجيتهم، عادات عالية، وخصائل غالية. فيتراءى لنا من خوارق إجراءاته الأساسية ألوف ما رأينا، فمن لم ير هذا العصر السعيد، ندخل فى عينه هذه الجزيرة ونتحداه .. فليجرب نفسه فيها. فليأخذوا مائة من فلاسفتهم وليذهبوا إليها، وليعملوا مائة سنة .. هل يتيسر لهم أن يفعلوا جزءاً من مائة جزء مما فعله ﷺ فى سنة بالنسبة إلى ذلك الزمان ؟!

- **الرشحة التاسعة :**

اعلم! إن كنت عارفاً بسجية البشر: أنه لا يتيسّر لعاقل أن يدّعى - فى دعوى فيها مناظرة - كذباً يخجل بظهوره، وأن يقوله بلا حرج وبلا تردد وبلا اضطراب يشير إلى حيلته، وبلا تصنع وتهيج يوميان إلى كذبه، أمام أنظار خصومه النقّادة، ولو كان شخصاً صغيراً، ولو فى وظيفة صغيرة، ولو بمكانة حقيرة، ولو فى جماعة صغيرة، ولو فى مسألة حقيرة. فكيف يمكن تداخل الحيلة ودخول الخلاف فى مدّعيات مثل هذا الشخص، الذى هو موظف عظيم، فى وظيفة عظيمة، بحيثية عظيمة، مع أنه يحتاج لحماية عظيمة، وفى جماعة عظيمة، مقابل خصومة عظيمة، وفى مسألة عظيمة، وفى دعوى عظيمة؟

وها هو يقول ما يقول بلا مبالاة بمعترض، وبلا تردد وبلا تحرج، وبلا تخوف وبلا اضطراب، وبصفوة صميمية، وبجدّية خالصة، وبطرز يثير أعصاب خصومه، بتزييف عقولهم وتحقير نفوسهم وكسر عزتهم، بأسلوب شديد علوى. فهل يمكن تداخل الحيلة فى مثل هذه الدعوى من مثل هذا الشخص، فى مثل الحالة المذكورة؟ كلا! ﴿إن هو إلا وحى يوحى﴾ (النجم : ٤).

نعم! إن الحق أغنى من أن يَدلس، ونظر الحقيقة أعلى من أن يُدلس عليه!
نعم! إنه مسلكه الحق مستغن عن التدليس، ونظره النقّاد منزّهٌ من أن يلتبس عليه الخيال.

• **الرشحة العاشرة :**

انظر واستمع إلى ما يقول! ها هو يبحث عن حقائق مدهشة عظيمة، ويبحث عن مسائل جاذبة للقلوب، جالبة للعقول إلى الدقة والنظر .. إذ من المعلوم أن شوق كشف حقائق الأشياء، قد ساق الكثيرين من أهل حب الاستطلاع واللهفة والاهتمام، إلى فداء الأرواح. ألا ترى أنه لو قيل لك: إن أفديت نصف عمرك، أو نصف مالك؛ لنزل من القمر أو المشترى شخصٌ يُخبرك بغرائب أحوالهم، ويخبرك بحقيقة مستقبل أيامك؟ أظنك ترضى بالفداء. فيا للعجب؟ ترضى لدفع ما تتلهف إليه بنصف العمر والمال، ولا تهتم بما يقول هذا النبى الكريم ﷺ ويصدقه إجماع أهل الشهود، وتواتر أهل الاختصاص من الأنبياء والصديقين والأولياء والمحققين! بينما هو يبحث عن شؤون سلطان، ليس القمر فى مملكته إلا كذباب يطير حول فراش، وهذا يحوم حول سراج من بين ألوف القناديل التى أسرجها فى منزل، من بين ألوف منازله التى أعدّها لضيوفه .. وكذا يخبر عن عالم هو محل الخوارق والعجائب، وعن انقلاب عجيب، بحيث لو انفلقت الأرض وتطايرت جبالها كالسحاب، ما ساوت عُشر معشار غرائب ذلك الانقلاب. فإن شئت فاستمع من لسانه أمثال السور الجليلة :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ و ﴿الْقَارِعَةُ﴾.

وكذا يخبر بصدق عن مستقبل، ليس مستقبل الدنيا بالنسبة إليه إلا كقطرة سراب بلا طائل بالنسبة إلى بحر بلا ساحل. وكذا يبشّر عن شهود بسعادة، ليست سعادة الدنيا بالنسبة إليها إلا كبرق زائل بالنسبة إلى شمس سرمدية.

- **الرشحة الحادية عشرة :**

إن تحت حجاب هذه الكائنات – ذات العجائب والأسرار – تنتظرنا أمورٌ أعجب. ولابد لإخبار تلك العجائب والخوارق شخصٌ عجيبٌ خارقٌ، يُستشف من أحواله أنه يشاهد ثم يشهد، ويبصر ثم يُخبر.

نعم! نشاهد من شؤونه وأطواره: أنه يشاهد ثم يشهد فيُنذر ويبشر. وكذا يُخبر عن مرضيات رب العالمين – الذى غمرنا بنعمه الظاهرة والباطنة – ومطالبه منا وهكذا ...

فيا حسرة على الغافلين! ويا خسارة على الضالين! ويا عجباً من بلاهة أكثر الناس! كيف تعاموا عن هذا الحق وتصامّوا عن هذه الحقيقة؟ لا يهتمون بكلام هذا النبى الكريم ﷺ مع أن من شأن مثله أن تُفدى له الأرواح، ويُسرع إليه بترك الدنيا وما فيها؟

- **الرشحة الثانية عشرة :**

اعلم أن هذا النبى الكريم ﷺ المشهود لنا بشخصيته المعنوية، المشهور فى العالم بشؤونه العلوية، كما أنه برهانٌ ناطق صادق على الوحدانية، ودليل حق بدرجة حقانية التوحيد، كذلك هو برهان قاطع ودليل ساطع على السعادة الأبدية؛ بل كما أنه بدعوته وبهدايته سبب حصول السعادة الأبدية ووسيلة وصولها، كذلك بدعائه وعبوديته سبب وجود تلك السعادة الأبدية ووسيلة إيجادها ..

فإن شئت فانظر إليه وهو فى الصلاة الكبرى، التى بعظمة وسعتها، صيّرت هذه الجزيرة بل الأرض مصلين بتلك الصلاة الكبرى .. ثم انظر إنه يصلى تلك الصلاة بهذه الجماعة العظمى، بدرجة كأنه هو إمامٌ فى محراب عصره واصطف خلفه، مقتدين به، جميع أفاضل بنى آدم، من آدم عليه السلام إلى هذا العصر، إلى آخر الدنيا فى صفوف الأعصار، مؤتمين به ومؤمنين على دعائه. ثم استمع ما يفعل فى تلك الصلاة بتلك الجماعة .. فها هو يدعو لحاجة شديدة عظيمة عامة، بحيث تشترك معه فى دعائه الأرض بل السماء، بل كل الموجودات، فيقولون بألسنة الأحوال: نعم يا ربنا تقبّل دعاءه؛ فنحن أيضاً، بل مع جميع ما تجلّى علينا من أسمائك، نطلب حصول ما يطلب هو .. ثم انظر إلى طوره فى طرز تضرعاته كيف يتضرع؛ بافتقار عظيم، فى اشتياق شديد، وبحزن عميق، فى محبوبية حزينة؛ بحيث يهيّج بكاء الكائنات فيبكيها فيُشركها فى دعائه. ثم انظر لأى مقصد وغاية يتضرع؟ ها هو يدعو لمقصد، لولا حصول ذاك المقصد لسقط الإنسان، بل العالم، بل كل المخلوقات إلى أسفل سافلين لا قيمة لها ولا معنى. وبمطلوبه تترقّى الموجودات إلى مقامات كمالاتها .. ثم انظر كيف يتضرع باستمداد مديد، فى غياث شديد، فى استرحام بتودد حزين، بحيث يُسمع العرش والسموات، ويهيج وجدها، حتى كأن العرش والسموات يقولون: آمين اللهم آمين .. ثم انظر ممن يطلب مسئوله؛ نعم! يطلب من القدير السميع الكريم، ومن العليم البصير الرحيم، الذى يسمع أخفى دعاء، من أخفى حيوان، فى أخفى حاجة؛ إذ يجيبه بقضاء حاجته بالمشاهدة، وكذا يبصر أدنى أمل، فى أدنى ذى حياة، فى أدنى غاية، إذ يوصله إليها من حيث لا يحتسب بالمشاهدة، ويكرم ويرحم بصورة حكيمة، وبطرز منتظم. لا يبقى ريب فى أن هذه التربية والتدبير من سميع عليم ومن بصير حكيم.

• **الرشحة الثالثة عشرة :**

فيا للعجب!.. ما يطلب هذا الذى قام على الأرض، وجمع خلفه جميع أفاضل بنى آدم، ورفع يديه متوجهاً إلى العرش الأعظم، يدعو دعاءً يؤمّن عليه الثقلان. ويُعلم من شؤونه أنه شرف نوع الإنسان، وفريد الكون والزمان، وفخر هذه الكائنات فى كل آن، ويستشفع بجميع الأسماء القدسية الإلهية المتجلية فى مرايا الموجودات، بل تدعو وتطلب تلك الأسماء عين ما يطلب هو. فاستمع! ها هو يطلب البقاء واللقاء والجنة والرضا. فلو لم يوجد مالا يعد من الأسباب الموجبة لإعطاء السعادة الأبدية، من الرحمة والعناية والحكمة والعدالة المشهودات – المتوقف كونها رحمة وعناية وحكمة وعدالة على وجود الآخرة – وكذا جميع الأسماء القدسية أسباب مقتضية لها، لكفى دعاء هذا الشخص النورانى، لأن يبنى ربه له ولأبناء جنسه الجنة، كما ينشئ لنا فى كل ربيع جناناً مزينة بمعجزات مصنوعاته. فكما صارت رسالته سبباً لفتح هذه الدار الدنيا للامتحان والعبودية، كذلك صار دعاؤه فى عبوديته سبباً لفتح دار الآخرة للمكافآت والمجازاة.

فهل يمكن أن يتدخل فى هذا الانتظام الفائق، وفى هذه الرحمة الواسعة، وفى هذه الصنعة الحسنة بلا قصور، وفى هذا الجمال بلا قبح، بدرجة أنطق أمثال الغزالى بـ "ليس فى الإمكان أبدع مما كان" وأن تتغير هذه الحقائق بقبح خشين، وبظلم موحش، وبتشوش عظيم، أى بعدم مجئ الآخرة؟ إذ سماع أدنى صوت من أدنى خلق فى أدنى حاجة، وقبولها بأهمية تامة، مع عدم سماع أرفع صوت ودعاء فى أشد حاجة، وعدم قبول أحسن مسؤول، فى أجمل أمل ورجاء؛ قبحٌ ليس مثله قبح وقصور لا يساويه قصور، حاشا ثم حاشا وكلاّ .. لا يقبل مثل هذا الجمال المشهود بلا قصور مثل هذا القبح المحض.

فيا رفيقى فى هذه السياحة العجيبة، ألا يكفيك ما رأيت ؟ فإن أردت الإحاطة فلا يمكن، بل لو بقينا فى هذه الجزيرة مائة سنة، ما أحطنا ولا مللنا من النظر بجزء واحد من مائة جزء من عجائب وظائفه، وغرائب إجراءاته.

فلنرجع القهقرى، ولننظر عصراً عصراً، كيف اخضرت تلك العصور واستفاضت من فيض هذا العصر؟ نعم، ترى كل عصر نمر عليه قد انفتحت أزاهيره بشمس عصر السعادة، وأثمر كل عصر من أمثال أبى حنيفة والشافعى وأبى يزيد البسطامى وجنيد والشيخ عبد القادر الكيلانى .. والإمام الغزالى والشاه النقشبندى والإمام الربانى ونظائرهم، ألوف ثمرات منورات من فيض هداية ذلك الشخص النورانى. فلنؤخر تفصيلات مشهوداتنا فى رجوعنا إلى وقت آخر، ونصلى ونسلم على ذلك الذات النورانى الهادى، ذى المعجزات بصلوات وسلام تشير إلى قسم من معجزاته :

من أنزل عليه القرآن الحكيم من الرحمن الرحيم من العرش العظيم.
على سيدنا محمد ألف ألف صلاة وسلام بعدد حسنات أمته.
على من بشر برسالته التوراة والإنجيل والزبور والزبر.
وبشر بنبوته الإرهاصات وهواتف الجن وأولياء الإنس وكواهن البشر وانشق بإشارته القمر .. سيدنا محمد ألف ألف صلاة وسلام بعدد أنفاس أمته.
على من جاءت لدعوته الشجر، ونزل سرعة بدعائه المطر، وأظلته الغمامة من الحر، وشبع من صاع من طعامه مئات من البشر، ونبع الماء من بين أصابعه ثلاث مرات كالكوثر، وأنطق الله له الضب والظبى والذئب والجذع والذراع والجمل والجبل والحجر والمدر والشجر.

صـــــــاحب المعـــــــــراج ومـــــــــا زاغ البصـــــــــــر ..
سيدنا وشفيعنا محمد ألف ألف صلاة وسلام، بعدد كل الحروف المتشكلة فى الكلمات المتمثلة بإذن الرحمن، فى مرايا تموجات الهواء، عند قراءة كل كلمة من القرآن من كل قـارئ، مـن أول النزول إلـى آخـر الزمـان .. واغفـر لنـا وارحمنـا يـا إلهنـا بكـــل صـــلاة منهـــا .. آميـــن .. آميـــن .. آميـــن يـــا رب العـــالمين.

الفصل السادس

كيفية الوصول والوسيلة إلي الرسول الحبيب ﷺ

إن الوصول إلى الرسول الحبيب ﷺ هى ذروة أمل المؤمنين، وغاية سعادة العارفين، وهى الطريق إلى مرضاة رب العالمين وأنوار اليقين. فإذا كان الله لم يأذن لأجيالنا أن تكون بصحبة النبى الأمين، فلا أقل من أن نسعى لتلك الصحبة بكل ما نملك من حب، وبكل ما يعترينا من شوق. ولكى نعرف أهمية الصحبة النبوية، وما فيها من أنوار قدسية، فعلينا أن نرهف السمع، بقلب عامر بالمحبة الإلهية، لما يقوله الإمام النورسى ﷺ، عن ذلك المقام الرفيع.

الصحبة النبوية أكسير الحياة :

إن الصحبة النبوية أكسير عظيم، لها من التأثير الخارق، ما يجعل الذين يتشرفون بها لدقيقة واحدة، ينالون من أنوار الحقيقة، ما لا يناله من يصرف سنيناً من عمره فى السير والسلوك، ذلك لأن فى الصحبة النبوية انصباغاً بصبغة الحقيقة، وانعكاساً لأنوارها، إذ يستطيع المرء بانعكاس ذلك النور الأعظم، أن يرقى إلى مراتب سامية ودرجات رفيعة، وأن يحظى بالتبعية والانتساب بأرفع المقامات. مثله فى هذا مثل خادم السلطان، الذى يستطيع أن يصل إلى مواقع رفيعة، لا يقدر على بلوغها قواد السلطان وأمراؤه.

ومن هذا السر نرى أنه لا يستطيع أن يرقى أعظم ولى من أولياء الله الصالحين، إلى مرتبة صحابى كريم للرسول الأعظم ﷺ، بل حتى لو تشرف أولياء صالحون مراراً بصحبة النبى ﷺ فى الصحوة، كجلال الدين السيوطى - مثلاً - وأكرموا بلقائه يقظة فى هذا العالم، فلا يبلغون أيضاً درجة الصحابة، لأن صحبة الصحابة الكرام للنبى ﷺ كانت بنور النبوة، إذ كانوا يصحبونه فى حالة كونه نبياً

رسولاً. أما الأولياء الصالحون فإن رؤيتهم له ﷺ إنما هي بعد وفاته، أي بعد انقطاع الوحي، فهي صحبة بنور الولاية، أي أن تمثل الرسول ﷺ وظهوره لنظرهم، إنما هو من حيث الولاية الأحمدية، وليس باعتبار النبوة.

فما دام الأمر هكذا، فلابد أن تتفاوت الصحبتان، بمقدار سمو درجة النبوة وعلوها على مرتبة الولاية.

ولكي يتوضح ما للصحبة النبوية من تأثير خارق ونور عظيم، يكفي ملاحظة ما يأتي :

بينما أعرابي غليظ القلب يئد بنته بيده، إذا به يكسب خلال حضوره مجلس الرسول ﷺ ومن صحبته ساعة من الزمان، رقة قلب وسعة صدر وشفافية روح، ما يجعله يتحاشى قتل نملة صغيرة.

أو آخر يجهل شرائع الحضارة وعلومها، يحضر مجلس الرسول الكريم ﷺ فيصبح معلماً لأرقى الأمم المتحضرة – كالهند والصين – ويحكم بينهم بالقسطاس المستقيم، ويغدو لهم مثلاً أعلى وقدوة طيبة.

لذا فالصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين وُهبوا فطرةً سليمة ومشاعر سامية، وهم التواقون لمعالي الأمور ومحاسن الأخلاق، شدوا أنظارهم إلى الذي تسنم قمة أعلى عليي الكمال، والداعي إلى الخير والصدق والحق، بل هو المثال الأكمل والنموذج الأتم، ذلكم الرسول الكريم حبيب رب العالمين محمد ﷺ، فبذلوا كل ما وهبهم الله سبحانه من قوة للانضواء تحت لوائه، بمقتضى سجيتهم الطاهرة وجبلتهم النقية، ولم يُر منهم أي ميل كان إلى أباطيل مسيلمة الكذاب، الذي هو مثال الكذب والشر والباطل والخرافات[1].

---

(١) الكلمات – ص ٥٧٣، ٥٧٤.

ويبين الإمام النورسى كيف أن الصحبة مع النبى ﷺ يمكن أن تتحقق عن طريق الذكر فيقول :

كما أن كل ذاكر فى حلقة الذكر، أو فى ختمة الذكر فى المسجد. **يشعر** برابطة روحية، تربطه بمن حوله، فيحسون جميعاً بحالة روحية نورانية، **فإن ذا** القلب اليقظ يحس إحساساً روحياً كلما سبّح بـ "سبحان الله .. سبحان **الله .. سبحان** الله .." بعد الصلاة، إنه فى حلقة ذكر مع مائة مليون من المسبّحين **الذاكرين، كأنهم** بين يدى الرسول ﷺ، الذى يترأس تلك الحلقة الذاكرة المترامية **الأطراف.**

فبهذه الأحاسيس الشاعرة بالعظمة والهيبة والرفعة والعلو يكرر **المؤمن :** "سبحان الله .. سبحان الله".

ثم إنه عندما يردد "الحمد لله .. الحمد لله .." بأمر معنوى صادر **من ذلك** السيد الكريم ﷺ فإنه يتأمل ويفكر فى عظمة تلك الكلمة "الحمد لله" **المنطلقة من** صدور مائة مليون من المرددين فى تلك الحلقة الواسعة الشاسعة، **فيشترك معهم** بقوله: "الحمد لله .. الحمد لله .. الحمد لله ..".

وهكذا، مع كلمة "الله أكبر .. الله أكبر .." ومع "لا إله إلا الله .. **لا إله إلا** الله" ثلاثاً وثلاثين مرة، حيث يختم الذكر ..

وبعد إتمام هذه الأذكار اللطيفة بتلك المعانى والتأمل الأخروى، **يتوجه إلى** سيد الحلقة الذاكرة وهو الرسول الكريم ﷺ حاملاً معه تلك المعانى **المذكورة مع** إخوانه فى حلقة الذكر قائلاً :

ألف ألف صلاة وألف ألف سلام عليك يا رسول الله[1].

---

(١) الملاحق - ص ١٤١، ١٤٢.

وهكذا فإن الأذكار بعد الصلاة لها أهمية كبيرة فى تحقيق الصحبة النبوية الشريفة، لا حرمنا الله منها، وندعوه من أعماق قلوبنا أن يوفقنا إلى تلك الغاية السامية، التى هى منتهى آمالنا.

الحب والتوقير هما أساس الوسيلة :

يبين الإمام النورسى ﷺ : أن الوسيلة للرسول ﷺ لابد أن تقوم على الحب والتوقير، النابعان من القلب .. وبالتالى فكل عمل مهما صغر، طالما الدافع له هو حب النبى ﷺ، فلابد أن يكون هذا العمل هو وسيلة إلى الوصول إلى الحبيب المصطفى.

ويقول فى ذلك :

تسلمت اليوم رسالة من السيد رأفت، ولمناسبة سؤاله عن اللحية النبوية الشريفة أقول: أنه ثابت فى الحديث الشريف: أن عدد الشعرات التى سقطت من لحيته الشريفة ﷺ محدود، وهو عدد قليل، يتراوح بين ثلاثين إلى أربعين، أو لا يتجاوز الخمسين والستين من الشعرات، ولكن وجود الشعرات فى ألوف الأماكن، استوقفنى ودفعنى إلى التأمل والتفكر فى حينه، فورد إلى خاطرى فى ذلك الوقت:

أن شعرات اللحية الشريفة الموجودة الآن – فى كل مكان – ليست هى شعرات اللحية الشريفة وحدها، بل ربما شعرات من رأسه المبارك ﷺ، إذ الصحابة الكرام الذين ما كانوا ليضيعوا شيئاً منه ﷺ قد حافظوا على تلك الشعرات المنورة المباركة – كلما حلق – والتى تبقى دائماً، فتلك الشعرات تربو على الألوف وهذا يمكن أن يكون مكافئاً للموجود الحاضر.

وورد أيضاً إلى خاطرى: تُرى هل الشعر الموجود فى كل جامع بسند صحيح هو ثابت أيضاً أنه من شعره ﷺ حتى تكون زيارتنا له معقولة؟

فسنح ببالى فجأة: أن زيارة تلك الشعرات إنما هى وسيلة، وهى سبب لقراءة الصلوات على الرسول الكريم ﷺ، وهى مدار محبته وتوقيره. فلا تنظر إلى ذات الوسيلة، وإنما إلى جهة كونها وسيلة، لذا فإن لم تكن هى شعرة حقيقية من شعراته ﷺ فهى تؤدى وظيفة تلك الوسيلة ما دامت تحسب - فى الظاهر - هكذا، وتلقاها الناس شعرة من شعراته ﷺ. فتكون تلك الشعرة وسيلة لتوقيره ﷺ ومحبته وأداء الصلوات عليه، فلا يلزم السند القطعى لتشخيص ذات الشعر وتعيينه، بل يكفى ألا يكون هناك دليل قاطع بخلافه، لأن ما يتلقاه الناس وما قبلته الأمة ورضيت به يكون فى حكم نوع من الحجة. وحتى لو اعترض بعض أهل التقوى على مثل هذه الأمور، سواءً من جهة التقوى، أو الأخذ بالأحوط أو العمل بالعزيمة، فإنما يعترضون على شعرات خاصة، ولو قيل أنها بدعة، فإنها داخلة ضمن البدعة الحسنة، لأنها الوسيلة للصلوات على الرسول الكريم ﷺ.

وأوصى إخوانى: ألا يناقشوا فيما يمكن أن ينجم عنه الانشقاق والافتراق، وإنما عليهم أن يتعلموا تباحث الأمور من دون نزاع، وعلى نمط التداول فى الأفكار [1].

ونحن ننتهز وصية هذا الإمام الجليل، وندعو الله أن يجمع قلوب المؤمنين على حبه وحب النبى الأمين، وينزع من قلوبهم الفرقة والاختلاف على سفاسف الأمور، ويعقد عزمهم على عظائمها، بما يصلح شأن الأمة الإسلامية، ويجعلها تتنبه إلى ما يواجهها من تحديات، ويحاك لها من مؤامرات.

فكل ما يقربنا من حب حضرة النبى ﷺ لا يستوجب النزاع والشقاق، طالما أنه ينبع من قلب يعمره الحب والتوقير لحبيب رب العالمين صلوات ربى وسلامه عليه.

---

(١) اللمعات - ص ١٦١.

الصلاة على النبي ﷺ وسيلة الوصول إليه :

وإذا تساءل سائل: كيف الوصول إلى الرسول الحبيب ﷺ وما الوسيلة إليه؟ فيجيبه إمامنا الجليل رحمه الله بقوله :

اعلم أن الوسيلة هي الصلاة عليه.

نعم! الصلاة عليه تعني الرحمة، فالصلاة عليه دعاء بالرحمة لتلك الرحمة المجسمة الحية، وهي وسيلة الوصول إلى من هو رحمة للعالمين.

فيا أيها الإنسان! اجعل الصلاة عليه وسيلة الوصول إليه، ثم استمسك به ليبلغك رحمة الرحمن الرحيم. فإن الأمة جميعها بدعائها وصلواتها على الرسول الكريم ﷺ إنما تثبت بوضوح مدى قيمة هذه الرحمة، ومدى أهمية هذه الهدية الإلهية، ومدى سعتها وعظمتها.

واعلم أن حاجب خزينة الرحمة الإلهية وأكرم داع إليها هو الرسول الكريم ﷺ كما أن أسمى مفتاح لتلك الخزينة هو "بسم الله الرحمن الرحيم" وأسلس ما يفتحها هو الصلوات على الرسول الحبيب ﷺ[1].

ويذكر لنا الإمام النورسي خاطرة جميلة تؤكد تلك المعاني الرائعة فيقول :

حينما كنت أقرأ جملة "ألف ألف صلاة وألف ألف سلام عليك يا رسول الله" عقب الصلاة، تراءت لي من بعيد خاطرة لطيفة انكشفت من تلك الصلوات، إلا إنني لم أتمكن من اقتناصها كاملة، ولكن سأشير إلى بعض جملها :

رأيت أن عالم الليل شبيه بمنزل جديد يفتح لدار الدنيا .. دخلت ذلك العالم في صلاة العشاء، ومن انبساط فوق العادة للخيال، وبحكم ارتباط ماهية الإنسان مع الدنيا قاطبة، رأيت أن هذه الدنيا العظيمة، قد أصبحت في ذلك الليل منزلاً صغيراً

(١) اللمعات – ص ١٥٥.

جداً حتى لا يكاد يرى ما فيه من بشر وذوى حياة. ورأيت خيالاً أن ليس هناك من ينور ذلك المنزل إلا الشخصية المعنوية للرسول ﷺ حتى امتلأت أرجاؤه بهجة وأنساً وسروراً.

وكما يبدأ الشخص بالسلام عند دخوله المنزل، كذلك وجدت فى نفسى شوقاً هائلاً ورغبة جياشة إلى القول: ألف ألف سلام عليك يا رسول الله.

ذلك لأن الرحمة النازلة على الرسول الكريم ﷺ هى متوجهة لحاجة الأمة قاطبة فى زمن أبدى، لذا فالصلاة غير المتناهية التى تهدى إليه منسجمة جداً.

فلو دخل شخص بيتاً خالياً مظلماً موحشاً – كالدنيا المظلمة الموحشة بالغفلة – كم سيأخذه الرعب والدهشة والاضطراب؟ ولكن كم يسره ويؤنسه ويفرحه وينوره، لو رأى أن شخصاً قد تصدر ذلك البيت يعرّفه بجميع ما فيه؟ فما بالك لو كان هذا الشخص هو الحبيب المحبوب والأنيس المأنوس، وهو الرسول العظيم ﷺ، متصدر بيت العالم، يعرف لنا المالك الرحيم الكريم بما فيه من أشياء.

وهكذا لكى تقدر بنفسك قيمة الصلوات عليه ولذاته.

ومن هنا وجدت نفسى كأننى أسلم عليه بعدد الإنس والجن، وأعبر بسلامى هذا عن تجديد البيعة له، والرضى برسالته وقبولها منه، وإطاعة القوانين التى أتى بها، والتسليم لأوامره وسلامته من بلايانا. أى كأننى أقدم هذا السلام – ناطقاً تلك المعانى – باسم كل فرد من أفراد عالمى، وهم ذوو الشعور من جن وإنس، وجميع المخلوقات.

وكذا فإن ما جاء به من النور العظيم والهدية الغالية ينور عالمى الخاص هذا، كما ينور العالم الخاص لكل أحد فى هذه الدنيا، فيحوّل عالمنا إلى عالم زاخر بالنعم. فقلت تجاه هذه النعمة الهائلة: "اللهم أنزل ألف صلاة عليه" علها تكون شكراناً وعرفاناً للجميل، على ذلك النور الحبيب والهدية الغالية، إذ أننا لا نستطيع أن نرد

جميله وإحسانه إلينا أبداً، فأظهرنا تضرعنا إلى الله جلَّ وعلا بالدعاء والتوسل، كي ينزل من خزائن رحمته عليه بعدد أهل السماوات جميعاً.

هكذا أحسست خيالاً، فهو ﷺ يطلب صلاة بمعنى "الرحمة" من حيث هو "عبد" ومتوجه من الخلق إلى الحق سبحانه .. ويستحق "السلام" من حيث أنه "رسول" من الحق سبحانه إلى الخلق.

وكما أننا نرفع إليه سلاماً بعدد الإنس والجن، ونجدد له البيعة بعددهم أيضاً، فإنه ﷺ يستحق أيضاً صلاة من خزائن الرحمة الإلهية بعدد أهل السماوات، وباسم كل واحد منهم .. ذلك لأن النور الذى جاء به هو الذى يظهر كمال كل شيء فى الوجود، ويبرز قيمة كل موجود، وتشاهد به الوظيفة الربانية لكل مخلوق، وتتجلى به المقاصد الإلهية من كل مصنوع. لذلك لو كان لكل شيء لسان، لكان يردد قولاً، كما يردد حالاً: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله .. ونحن بدورنا نقول بدلاً عن المخلوقات كافة: ألف ألف صلاة وألف ألف سلام عليك يا رسول الله بعدد الإنس والجن، وبعدد الملك والنجوم:

فيكفيك أن الله صلى بنفسه وأملاكه صلت عليك وسلمت[1]

هل الرسول ﷺ فى حاجة إلى هذه الكثرة من الدعاء والصلوات عليه؟

يجيب على هذا السؤال الإمام النورسى رضي الله عنه بقوله:

اعلم أن تأثير الدعاء عظيم، ولا سيما إذا دام واكتسب الكلية، فهذا الدعاء يثمر على الأغلب ويستجاب دائماً. حتى يصح أن يقال: أن سبب خلق العالم إنما هو دعاء، حيث أن الدعاء العظيم للرسول الأعظم ﷺ وهو يتقدم العالم الإسلامى الذى يدعو الدعاء نفسه، وهم يتقدمون البشرية جمعاء التى تسأل الدعاء نفسه .. ذلك

(١) الكلمات – ص ٤٤١، ٤٤٢.

الدعاء هو: السعادة الأبدية، وهو سبب من أسباب خلق العالم. أى أن رب العالمين قد علم بعلمه الأزلى أن ذلك الرسول الكريم ﷺ سيسأله السعادة الأبدية، والحظوة بتجل من تجليات أسمائه الحسنى، سيسأله باسم البشرية قاطبة، بل باسم الموجودات .. فاستجاب سبحانه وتعالى ذلك الدعاء العظيم فخلق هذا العالم.

فما دام الدعاء قد اكتسب هذه الأهمية العظيمة والسعة الشاملة، فهل يمكن ألا يستجاب؟ وهل يمكن لدعاء يلهج به مئات الملايين من البشر - فى الأقل - ومنذ ألف وثلاث مائة سنة، يدعونه متفقين، فى كل حين، بل يدعو معهم كل الطيبين من الجن والملك والروحانيات، ممن لا يحصون ولا يعدون .. هل يمكن ألا يستجاب هذا الدعاء الذى يدعونه للرسول الكريم ﷺ لينال الرحمة الإلهية العظيمة والسعادة الخالدة؟

فما دام قد اكتسب هذا الدعاء الكلية والسعة والدوام إلى هذا الحد، حتى بلغ درجة لسان الاستعداد وحاجة الفطرة، فلابد أن ذلك الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ قد اعتلى نتيجة الدعاء مرتبة رفيعة عالية، بحيث لو اجتمعت العقول جميعاً للإحاطة بحقيقة تلك المرتبة لعجزت عجزاً تاماً.

فبشراك أيها المسلم! أن لك شفيعاً كريماً فى يوم الحشر الأعظم، هو هذا الرسول الحبيب ﷺ .. فاسع لنيل شفاعته بالدعاء له والصلاة عليه واتباع سنته.

فإن قلت : ما حاجة الرسول الكريم ﷺ وهو حبيب رب العالمين إلى هذه الكثرة من الدعاء والصلوات عليه ؟

الجواب : أنه ﷺ ذو علاقة قوية مع سعادة أمته قاطبة، فله حصته مما يناله كل فرد من أفراد أمته من أنواع السعادة، وهو يحزن أيضاً ويتألم لكل مصيبة تصيبهم.

فعلى الرغم من أن مراتب الكمال والسعادة بحقه لا حد لها، فإن الذى يرغب رغبة شديدة فى أن تنال أفراد أمته، الذين لا يحدون، أنواعاً لا تحد من السعادة وفى أزمان لا تحد، ويتألم بأنواع لا حد لها من شقائهم ومصائبهم، لابد أنه محتاج وحرى به، صلوات لا حد لها وأدعية لا حد لها ورحمة لا حد لها[1].

نعم، إن من هو سلطان ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الناس فى كل عصر، عبر ألف وثلاثمائة وخمسين سنة وهو مربّى أرواحهم، ومرشد عقولهم، ومحبوب قلوبهم، والذى يُرفع إلى صحيفة حسناته يومياً أمثال ما قدمت أمته من حسنات، إذ "السبب كالفاعل" والذى هو مدار المقاصد الربانية، ومحور الغايات الإلهية السامية فى الكون، والذى هو السبب لرقى قيمة الموجودات وسمّوها، ذلك الرسول الأكرم ﷺ، فكما أنه قال فى الدقائق الأولى التى تشرّف العالم به "أمتى .. أمتى .." كما ورد فى الروايات الصحيحة والكشفيات الصادقة، فإنه ﷺ يقول فى المحشر أيضاً: "أمتى .. أمتى .." ويسعى بشفاعته إلى إمداد أمته، وإغاثتها بأعظم رحمة وأسماها وأقدسها وأعلاها، فى الوقت الذى يقول كل فرد من الجموع العظيمة: "نفسى .. نفسى". فنحن إذن ذاهبون إلى العالم الذى ارتحل إليه هذا النبى الكريم، راحلون إلى العالم الذى استنار بنور ذلك السراج المنير وبمن حوله، من نجوم الأصفياء والأولياء الذين لا يحصرهم العد.

نعم، إن اتباع السنة الشريفة لهذا النبى الكريم ﷺ والدعاء له والصلوات عليه، هو الذى يقود إلى الانضواء تحت لواء شفاعته والاقتباس من أنواره، والنجاة من ظلمات البرزخ[2].

---

(١) الكلمات – ص ٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) اللمعات – ص ٣٤٤، ٣٤٥.

اتباع السنة وبحار الحب السرمدية :

إن اتباع السنة النبوية الشريفة من أعظم السبل للوصول إلى محبة الرسول ﷺ وبالتالي الدخول إلى بحار الحب الإلهي، مصداقاً لقول الحق عزّ وجلّ :

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (آل عمران : ٣١)

ويشرح لنا الإمام النورسي أهمية اتباع السنة في نقاط عديدة، نختار منها ما يوفي بغرضنا من أنها أعظم الأبواب وأغنى الوسائل للوصول إلى محبة المولى عزّ وجلّ ومحبة رسوله الكريم ﷺ، وقبل هذا وذلك فهي ضرورة حيوية لتوفية أشد الاحتياجات الإنسانية، وهي وجود القدوة التي تخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، وتحفظه من غرور النفس الأمارة بالسوء، وتنجيه من هموم التردد والوساوس .. كما أن تلك القدوة تعرج به في معارج الكمال الإنساني، حيث مكارم الأخلاق في أجلى صورها، وأسمى معانيها.

اتباع السنة واستحضار الرقابة الإلهية :

قال الرسول ﷺ :

"من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد"[1].

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل وابن بشران في الأمالي ١٩٣/٢ و ١٤١ وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب للبيهقي. والثابت في الحديث الصحيح قوله ﷺ : "إن من ورائكم زمان صبر، للمتمسك فيه أجر خمسين شهيدا منكم" أخرجه الطبراني في الكبير ١٠٣٩٤ والبزار ٣٧٨/١ وقال الهيثمي في المجمع (٢٨٢/٧): ورجال البزار رجال الصحيح غير سهل بن عامر البجلي وثقه ابن حبان. أ هـ. وفي الصحيحة (٤٩٤) قال عن إسناد الطبراني: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات رجال مسلم (المترجم: الأستاذ إحسان قاسم الصالحي).

أجل! إن اتباع السنة المطهرة لهو حتماً ذو قيمة عالية، ولا سيما اتباعها عند استيلاء البدع وغلبتها، فإن له قيمة أعلى وأسمى، وبالأخص عند فساد الأمة، إذ تُشعر مراعاة أبسط الآداب النبوية بتقوى عظيمة وإيمان قوى راسخ؛ ذلك لأن الاتباع المباشر للسنة المطهرة يذكّر بالرسول الأعظم ﷺ، فهذا التذكر الناشئ من ذلك الاتباع ينقلب إلى استحضار الرقابة الإلهية، بل تتحول فى الدقائق التى تراعى فيها السنة الشريفة أبسط المعاملات العرفية والتصرفات الفطرية – كآداب الأكل والشرب والنوم وغيرها – إلى عمل شرعى وعبادة مثابة عليها؛ لأن الإنسان يلاحظ بذلك العمل المعتاد اتباع الرسول ﷺ، فيتصور أنه يقوم بأدب من آداب الشريعة، ويتذكر أنه ﷺ صاحب الشريعة، ومن ثم يتوجه قلبه إلى الشارع الحقيقى وهو الله سبحانه وتعالى، فيغنم سكينة واطمئناناً ونوعاً من العبادة.

وقال الإمام الربانى أحمد الفاروقى رحمه الله :

"بينما كنت أقطع المراتب فى السير والسلوك الروحانى، رأيت أن أسطع ما فى طبقات الأولياء، وأرقاهم وألطفهم وآمنهم وأسلمهم هم أولئك الذين اتخذوا اتباع السنة الشريفة أساساً للطريقة، حتى كان الأولياء العوام لتلك الطبقة يظهرون أكثر بهاءاً واحتشاماً من الأولياء الخواص لسائر الطبقات".

نعم إن الإمام الربانى مجدد الألف الثانى ينطق بالحق، فالذى يتمسك بالسنة الشريفة ويتخذها أساساً له، لهو أهل لمقام المحبوبية فى ظل حبيب الله ﷺ[1].

السنة مرشد فى الطرق المجهولة الوعرة :

عندما كان يسعى هذا السعيد الفقير إلى الله، للخروج من حالة (سعيد القديم). ارتج عقلى وقلبى وتدحرجا ضمن الحقائق، إزاء إعصار معنوى رهيب، فقد

(١) اللمعات – ص ٨٠، ٨١.

شعرت كأنهما يتدحرجان، هبوطاً تارة من الثريا إلى الثرى، وتارة صعداً من الثرى إلى الثريا، وذلك لانعدام المرشد، ولغرور النفس الأمارة.

فشاهدت حينئذ أن مسائل السنة النبوية الشريفة بل حتى أبسط آدابها، كل منها فى حكم مؤشر البوصلة الذى يبين اتجاه الحركة فى السفن. وكل منها فى حكم مفتاح مصباح يضئ ما لا يحصر من الطرق المظلمة المضرة.

وبينما كنت أرى نفسى فى تلك السياحة الروحية أرزح تحت ضغط مضايقات كثيرة وتحت أعباء أثقال هائلة، إذا بى أشعر بخفة كلما تتبعت مسائل السنة الشريفة المتعلقة بتلك الحالات، وكأنها كانت تحمل عنى جميع الأثقال وترفع عن كاهلى تلك الأعباء. فكنت أنجو باستسلام تام بالسنة من هموم التردد والوساوس مثل: "هل فى هذا العمل مصلحة؟ ترى هل هو حق؟". وكنت أرى متى ما كففت يدى عن السنة تشتد موجات المضايقات وتكثر، والطرق المجهولة تتوعر وتغمض، والأحمال تثقل .. وأنا عاجز فى غاية العجز ونظرى قصير، والطريق مظلمة، بينما كنت أشعر متى ما اعتصمت بالسنة، وتمسكت بها، تتنور الطريق من أمامى، وتظهر كأنها طريق آمنة سالمة والأثقال تخف والعقبات تزول.

نعم، هكذا أحسست فى تلك الفترة فصدقت حكم الإمام الربانى بالمشاهدة[1].

السنة هى سفينة الأمان والاطمئنان :

قال الإمام النورسى ﷺ فى بيان ذلك المعنى :

غمرتنى – فى فترة ما – حالة روحية نبعت من التأمل فى "رابطة الموت" ومن الإيمان بقضية "الموت حق"، ومن طول التفكر بزوال العالم وفنائه.

(١) اللمعات – ص ٨٢.

وبينما أنا فى هذا الذهول الروحى، والحزن الشديد يعصر قلبى، إذا بمدد يأتينى من القرآن الكريم والإيمان. فمدتنى الآية الكريمة: ﴿فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾ حتى غدت هذه الآية بمثابة سفينة أمان فى منتهى السلام والاطمئنان. فدخلت الروح آمنة مطمئنة فى حمى هذه الآية الكريمة .. وفهمت فى حينها أن هناك معنى غير المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة، وهو المعنى الإشارى. فلقد وجدت فيه سلواناً لروحى، حيث وهب لى الاطمئنان والسكينة.

نعم! إن المعنى الصريح للآية الكريمة يقول للرسول الكريم ﷺ :

"إذا تولى أهل الضلالة عن سماع القرآن، وأعرضوا عن شريعتك وسنتك، فلا تحزن ولا تغتم، وقل حسبى الله، فهو وحده كاف لى، وأنا أتوكل عليه؛ إذ هو الكفيل بأن يقيض من يتبعنى بدلاً منكم، فعرشه العظيم يحيط بكل شىء، فلا العاصون يمكنهم أن يهربوا منه، ولا المستعينون به يظلون بغير مدد وعون منه".

فكما أن المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة يقول بهذا، فالمعنى الإشارى للآية الكريمة يقول :

"أيها الإنسان، ويا من يتولى قيادة الإنسان وإرشاده؛ لئن ودعتك الموجودات كلها، وانعدمت ومضت فى طريق الفناء .. وإن فارقتك الأحياء وجرت إلى طريق الموت .. وإن تركك الناس وسكنوا المقابر .. وإن أعرض أهل الغفلة والضلالة، ولم يصغوا إليك وترديوا فى الظلمات .. فلا تبال بهم، ولا تغتم، وقل: حسبى الله، فهو الكافى، فإذ هو موجود فكل شىء موجود .. وعلى هذا، فإن أولئك الراحلين لم يذهبوا إلى العدم، وإنما ينطلقون إلى مملكة أخرى لرب العرش العظيم، وسيرسل بدلاً منهم ما لا يعد ولا يحصى من جنوده المجندين .. وإن أولئك الذين سكنوا

المقابر لم يفنوا أبداً، وإنما ينتقلون إلى عالم آخر، وسيبعث بدلاً منهم موظفين آخرين يعمرون الدنيا، ويشغلون ما خلا من وظائفها .. وهو القادر على أن يرسل من يطيعه ويسلك الطريق المستقيم، بدلاً ممن وقعوا فى الضلالة من الذاهبين.

فما دام الأمر هكذا، فهو الكفيل، وهو الوكيل، وهو البديل عن كل شيء، ولن تعوّض جميع الأشياء عنه، ولن تكون بديلاً عن توجه واحد من توجهات لطفه ورحمته لعباده[1].

محبة الله تستلزم اتباع حبيب الله :

قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ (آل عمران : ٣١) تعلن هذه الآية العظيمة إعلاناً قاطعاً عن مدى أهمية اتباع السنة النبوية ومدى ضرورتها.

إن محبة الله تستلزم اتباع السنة الطاهرة لمحمد ﷺ، لأن حب الله هو العمل بمرضياته، وأن مرضاته تتجلى بأفضل صورها فى ذات محمد ﷺ.

والتشبه بذاته المباركة فى الحركات والأفعال يأتى من جهتين :

إحداهما: جهة حب الله سبحانه وإطاعة أوامره، والحركة ضمن دائرة مرضاته، هذه الجهة تقتضى ذلك الاتباع، حيث أن أكمل إمام وأمثل قدوة فى هذا الأمر هو محمد ﷺ.

وثانيتهما: جهة "ذاته المباركة" ﷺ التى هى أسمى وسيلة للإحسان الإلهى غير المحدود للبشرية، فهى إذاً أهل لمحبة غير محدودة لأجل الله وفى سبيله.

---

(١) اللمعات – ص ٨٢ : ٨٤.

والإنسان يرغب فطرة فى التشبه بالمحبوب ما أمكن، لذا فالذين يسعون فى سبيل حب "حبيب الله" عليهم أن يبذلو جهدهم للتشبه به باتباع سنته الشريفة.

وكما أن لله سبحانه وتعالى رحمة غير متناهية، فله سبحانه كذلك محبة غير متناهية. وكما أنه يحبب نفسه- بصورة غير محدودة- بمحاسن الكائنات جميعاً وبجمالها وزينتها إلى مخلوقاته، فإنه كذلك يحب مخلوقاته، ولا سيما أصحاب الشعور منهم، الذين يقابلون تحببه لهم بالحب والتعظيم. لذا فإن أسمى مقصد الإنسان فى مرضاة ربه، وأجلُّ سعيه، هو أن يكون موضع نظر محبة الله، الذى خلق الجنة بلطائفها ومحاسنها ولذائذها ونعمها، بتجلى من تجليات رحمته.

وبما أن أحداً لا يمكنه أن يكون أهلاً لمحبته سبحانه إلا باتباع السنة الأحمدية، كما نص عليه كلامه العزيز، إذن فاتباع السنة المحمدية هو أعظم مقصد إنسانى وأهم وظيفة بشرية[١].

اتباع السنة يسكب نوراً فى القلب

إن للسنة المطهرة مراتب:

قسم منها **واجب** لا يمكن تركه، وهو مبين فى الشريعة الغراء مفصلاً، وهو من المحكمات أى لا يمكن بأية جهة كانت أن تتبدل.

وقسم منها هو من قبيل **النوافل**، وهذا بدوره قسمان:

قسم منه هو **السنن** التى تخص العبادات، وهى مبينة أيضاً فى كتب الشريعة. وتغيير هذه السنن بدعة.

(١) اللمعات- ص ٨٤.

أما القسم الآخر فهو الذى يطلق عليه "الآداب" وهى المذكورة فى كتب السير الشريفة، ومخالفتها لا تسمى بدعة، إلا أنها من نوع مخالفة الآداب النبوية، وعدم الاستفاضة من نورها، وعدم التأدب بالأدب الحقيقى. فهذا القسم هو : اتباع أفعال الرسول ﷺ المعلومة بالتواتر فى العرف والعادات والمعاملات الفطرية، ككثير من السنن التى تبين قواعد أدب المخاطبة، وتظهر حالات الأكل والشرب والنوم، أو التى تتعلق بالمعاشرة. فمن يتحر أمثال هذه السنن التى تطلق عليها "الآداب" ويتبعها، فإنه يحول عاداته إلى عبادات، ويستفيض من نور ذلك الأدب النبوى، لأن مراعاة أبسط الآداب وأصغرها تذكر بالرسول الأعظم ﷺ مما يسكب النور فى القلب.

إن السنة النبوية المطهرة فى حقيقة أمرها لهى أدب عظيم، فليس فيها مسألة إلا وتنطوى على أدب ونور عظيم. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: "أدبنى ربى فأحسن تأديبى"[١].

نعم، فمن يمعن النظر فى السيرة النبوية ويحط علماً بالسنة المطهرة، يدرك يقيناً أن الله سبحانه وتعالى قد جمع أصول الآداب وقواعدها فى حبيبه ﷺ. فالذى يهجر سنته المطهرة ويجافيها، فقد هجر منابع الأدب وأصوله، فيحرم نفسه من خير عظيم، ويظل محروماً من لطف الرب الكريم، ويقع فى سوء أدب وبيل. قال الإمام الربانى: "كنت أرى فى سيرى عبر السلوك الروحانى أن الكلمات المروية عن الرسول الأعظم ﷺ منورة متألقة بشعاع السنة المطهرة، فى حين كنت أرى الأوراد

---

(١) حديث معناه صحيح، ابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود (شرح المناوى على الجامع الصغير) وقال ابن تيمية (١٨/٣٧٥): معناه صحيح ولكن لا يعرف له إسناد ثابت وأيده السخاوى والسيوطى. راجع (كشف الخفاء ١/٧٠) وسلسلة الأحاديث الضعيفة برقم ٧٢. (المترجم: الأستاذ إحسان الصالحى).

العظيمة والحالات الباهرة غير المروية عنه ليس عليها ذلك النور والتألق. فما كان يبلغ أسطع ما في هذا القسم - الأخير - إلا أقل القليل لما في السنة .. ففهمت من هذا: أن شعاع السنة المطهرة لهو الأكسير النافذ، فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها...".

فهذا الحكم الصادر من هذا الرائد البطل من أبطال الحقيقة والشريعة ليظهر لنا: أن السنة السنية هي الحجر الأساس لسعادة الدارين ومنبع الكمال والخير.

اللهم ارزقنا اتباع السنة السنية[1].

﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (آل عمران : ٥٣)

السنة أنفع دواء للأمراض الروحية والعقلية والقلبية :

تبين الآية الكريمة ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم ..﴾ كمال شفقة الرسول الكريم ﷺ ومنتهى رأفته نحو أمته. أما التي تعقبها ﴿فإن تولوا فقل حسبي الله ..﴾ (التوبة : ١٢٨، ١٢٩). فهي تقول :

"أيها الناس! أيها المسلمون! اعلموا كم هو انعدام للوجدان وفقدان للعقل إعراضكم عن سنن هذا النبي الرؤوف الرحيم، وعما بلغ من أحكام، لحد إنكاركم شفقته البديهية، واتهام رأفته المشاهدة، وهو الذي أرشدكم برأفته الواسعة، وبذل كل ما أوتي لأجل مصالحكم، مداوياً جراحاتكم المعنوية، ببلسم سننه الطاهرة، والأحكام التي أتى بها.

(١) اللمعات - ص ٨٦، ٨٧، ٩٠.

وأنت أيها الرسول الحبيب الرؤوف الرحيم، إن لم يعرف هؤلاء شفقتك العظيمة هذه، لبلاهتهم، ولم يقدروا رأفتك الواسعة هذه، فأداروا لك ظهورهم، ولم يعيروا لك سمعاً .. فلا تبال ولا تهتم، فإن رب العرش العظيم الذى له جنود السموات والأرض، والذى تهيمن ربوبيته من على العرش الأعظم، المحيط بكل شىء، لهو كاف لك .. وسيجمع حولك المطيعين حقاً، ويجعلهم يصغون إليك ويرضون بأحكامك".

نعم، إنه ليست فى الشريعة المحمدية والسنة الأحمدية مسألة إلا وفيها حِكَمٌ عديدة، فأنا هذا الفقير إلى الله أدعى بهذا، رغم كل عجزى وقصورى. وأنا على استعداد لإثبات هذه الدعوى. فما كتبته لحد الآن من أكثر من سبعين رسالة من رسائل النور، إنما هو بمثابة سبعين شاهداً صادقاً على مدى الحكمة والحقيقة، التى تنطوى عليها السنة الأحمدية والشريعة المحمدية، فلو قدر وكتب هذا الموضوع، فلا يكفى سبعون رسالة، ولا سبعة آلاف رسالة، لإيفاء تلك الحكم حقها.

ثم إنى قد شاهدت شخصياً، وتذوقته بنفسى، بل لى ألف تجربة وتجربة: إن دساتير المسائل الشرعية والسنة النبوية أفضل دواء وأنفعه للأمراض الروحية والعقلية والقلبية، ولا سيما الاجتماعية منها. فأنا أعلن بمشاهدتى وإحساسى هذا، وقد أشعرت الآخرين بشىء منها فى الرسائل بأنه: لا يمكن أن تسد مسد تلك المسائل أية حلول فلسفية، ولا أية مسألة حكيمة. فالذين يرتابون من ادعائى هذا، عليهم مراجعة أجزاء رسائل النور.

فليقدر إذاً مدى الربح العظيم فى السعى لاتباع سنة هذه الذات المباركة والجد فى طلبها على قدر الاستطاعة، ومدى السعادة للحياة الأبدية، ومدى النفع فى الحياة الدنيا[1].

---

(١) اللمعات – ص ٨٨، ٨٩.

اتباع السنة ومدارج الكمال الإنسانى :

لقد وصف الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ فى القرآن الحكيم بقوله :

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم : ٤)

ووصف الصحب الكرام، كما وصفته الصحابية الجليلة الصديقة عائشة رضى الله عنها قائلة : (كان خُلُقهُ القرآن)[١]. أى: "إن محمد ﷺ هو المثال النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن الأخلاق، وهو أفضل من تمثلت فيه تلك المحاسن، بل إنه خلق فطرة على تلك المحاسن". ففى الوقت الذى ينبغى أن يكون كل من أفعال هذا النبى العظيم ﷺ وأقواله وأحواله، وكل من حركاته نموذج اقتداء للبشرية، فما أتعس أولئك المؤمنين من أمته، الذين غفلوا عن سنته ﷺ ممن لا يبالون بها، أو يريدون تغييرها، فما أتعسهم وما أشقاهم!

لما كان الرسول ﷺ قد خلق فى أفضل وضع وأعدله، وفى أكمل صورة وأتمها، فحركاته وسكناته قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة، وسيرته الشريفة تبين هذا بياناً قاطعاً وبوضوح تام، بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة فى كل حركة من حركاته، متجنباً الإفراط والتفريط.

نعم لما كان الرسول ﷺ قد امتثل امتثالاً كاملاً قوله تعالى ﴿فاستقم كما أمرت﴾ (هود : ١١٢) فالاستقامة تظهر فى جميع أفعاله وأقواله وأحواله، ظهوراً لا لبس فيه.

فمثلاً : إن قواه العقلية قد سارت دائماً ضمن الحكمة، التى هى محور الاستقامة والحد الوسط، مبرأة عما يفسدها ويكبتها من إفراط وتفريط، أى الغباء والخب.

---

(١) جزء من حديث عائشة رضى الله عنها. أخرجه مسلم ٧٤٦ وأحمد ٥٤/٦، ٩١، ١٦٣ وأبو داود ١٣٤٢.

وإن قواه الغضبية قد سارت دائماً ضمن الشجاعة السامية، التي هي محور الاستقامة والحد الوسط، منزهة عما يفسدها من إفراط وتفريط أي الجبن والتهور.

وأن قوته الشهوية قد اتخذت محور الاستقامة دائماً وهي العفة، واستقامت عليها بأسمى درجات العصمة، فصفت من فساد تلك القوة من إفراط وتفريط أي الخمود والفجور.

وهكذا فإنه ﷺ قد اختار حد الاستقامة في جميع سننه الشريفة الطاهرة وفي جميع أحواله الفطرية، وفي جميع أحكامه الشرعية، وتجنب كلياً من الظلم والظلمات أي الإفراط والتفريط، والإسراف والتبذير، حتى أنه قد اتخذ الاقتصاد له دليلاً متجنباً الإسراف نهائياً، في كلامه وفي أكله وفي شربه.

قد لا يتيسر اتباع كل نوع من أنواع السنة الشريفة اتباعاً فعلياً كاملاً إلا لأخص الخواص، ولكن يمكن لكل واحد الاتباع عن طريق : النية والقصد والرغبة في الالتزام والقبول. ومن المعلوم أنه ينبغي الالتزام بأقسام الفرض والواجب. أما السنن المستحبة في العبادة فتركها وإهمالها، وإن لم يكن فيه إثم، إلا أنه ضياع لثواب عظيم، فالسعيد المحظوظ هو من له أوفر نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة.

ومن لم يتبع السنة فهو في خسران مبين، إن كان متكاسلاً عنها .. وفي جناية كبرى إن كان غير مكترث بها .. وفي ضلالة عظيمة إن كان منتقداً لها بما يومئ التكذيب بها[1].

ونختتم ذلك الفصل بتلك الكلمات المباركات التي وجهها الإمام النورسي إلى روح سيدنا محمد ﷺ المقدسة الطاهرة .. ونحن إذ نسجل تلك الكلمات الطيبات نسجل معها أسمى الحب والعرفان لسيدنا وحبيبنا ونور قلوبنا سيدنا محمد ﷺ ونسجد لله شكراً على تلك النعمة المهداة، المتمثلة في بعثة خير الأنام، وخاتم الأنبياء والمرسلين.

---

(١) اللمعات - ص ٩٥، ٩٦.

اللهم صل على من دلّ على وجوب وجودك ووحدانيتك، وشهد على جلالك وجمالك وكمالك .. الشاهد الصادق المصدق والبرهان الناطق المحقق .. سيد الأنبياء والمرسلين، الحامل سر إجماعهم وتصديقهم ومعجزاتهم .. وإمام الأولياء والصديقين، الحاوى سر اتفاقهم وتحقيقهم وكراماتهم، ذو المعجزات الباهرة والخوارق الظاهرة والدلائل القاطعة المحققة المصدقة له .. ذو الخصال الغالية فى ذاته، والأخلاق العالية فى وظيفته، والسجايا السامية فى شريعته، المكملة المنزّهة عن الخلاف، مهبط الوحى الربانى بإجماع المنزِل والمنزَل والمنزّل عليه .. سيّار عالم الغيب والملكوت .. مشاهد الأرواح ومصاحب الملائكة .. أنموذج كمال الكائنات شخصاً ونوعاً وجنساً .. أنور ثمرات شجرة الخلقة، سراج الحق، برهان الحقيقة، تمثال الرحمة، مثال المحبة، كشاف طلسم الكائنات، دلال سلطنة الربوبية، المرمز بعلوية شخصيته المعنوية، إلى أنه نصب عين فاطر العالم فى خلق الكائنات .. ذو الشريعة التى هى بوسعة دساتيرها وقوتها، تشير إلى أنها نظام ناظم الكون ووضع خالق الكائنات.

نعم، إن ناظم الكائنات بهذا النظام الأتم الأكمل، هو ناظم هذا الدين بهذا النظام الأحسن الأجمل، سيدنا نحن معاشر بنى آدم، ومهدينا إلى الإيمان نحن معاشر المؤمنين، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات ما دامت الأرض والسماوات، فإن ذلك الشاهد الصادق المصدّق يشهد على رؤوس الأشهاد منادياً، ومعلماً لأجيال البشر خلف الأعصار والأقطار، نداءً علوياً بجميع قوته وبغاية جدّيته وبنهاية وثوقه، وبقوة اطمئنانه وبكمال إيمانه :

"أشـــهد أن لا إلـــه إلا اللـــه وحـــده لا شـــريك لـــه"[1].

(١) الكلمات – ص ٣٤٤.

الخاتمــــة

فى ختام بحثنا هذا نحمد الله أن حبانا بنعمة الإيمان والإسلام، وتفضل علينا ببعثة خير الأنام، الذى ختم به قافلة النور والإحسان، من الأنبياء والرسل الكرام، الذين بددوا ظلمات الجاهلية العمياء، وأخذوا بيد البشرية إلى مدارج الحب والخير والوفاء.

وأعترف فى هذا المقام الكريم : أننى لم أكن أتصور أن احتياجنا للنبوة يصل إلى تلك الدرجة من العمق والشدة .. بل أقول الحق: إننى فى نهاية هذا البحث وصلت إلى حالة العجز المطلق، عن شكر المولى جلَّ شأنه الذى تفضل علينا بتلك النعم التى لا تعد ولا تحصى: بدءاً من نعمة الحياة، وتهيئة الدار الدنيا لاستقبالنا، وإعدادها بما يليق بمضيف كريم رب العالمين، ثم إرساله الأنبياء والمرسلين، حتى لا تتيه أرواحنا فى الضلال المبين، وننعم بإشراقات المولى الكريم، ونعيش فى اطمئنان وسلام، وسكينة وأمان.

فنحمدك اللهم على ما أنعمت وأوليت، ونسجد شكراً لعظمتك ورحمتك التى وسعت كل شىء .. ونقول بلسان الحال والمقال، من أعمق أعماق الجنان: "لو لم يكن هناك من نعمة غير نعمة الإيمان، فكفى بها من نعمة".

فالإيمان هو معرفة الرسل والأنبياء الكرام، الذين يعرفونا برب الأنام، وعالم الغيب والإحسان، ويأخذ بيدنا من دركات الظنون والوساوس والأوهام، إلى معارج اليقين والحق والكمال.

والإيمان هو الذى يحررنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وينطلق بنا إلى رحاب واسعة، وآفاق هائلة، فتتجاوب أرواحنا مع تسبيح الكائنات لرب الأرضين والسماوات.

والإيمان ينقلنا من ظلمات الشرك والأوهام، إلى رحابة التوحيد، حيث وعود الحق الديّان، الذى يعدنا بحسن المآب، بعد الوفاء بأمانة العهد مع الرسل والأنبياء، مبعوثى العناية الربانية، ومنارات البشرية.

والإيمان يعلمنا كيف نتوافق مع الأكوان، وننشد جميعاً أنشودة الحب والسلام، لأننا جميعاً عبيد لمولى كريم، شرفنا وأكرمنا بالمرسلين، الذين اصطفاهم على البشرية أجمعين.

والإيمان هو أكسير الحياة، الذى يجعلنا نعيش فى أمان، لأننا لا نخشى من تقلبات الزمان والأحوال، والفتن والأهواء، فنحن نثق بوعد ربنا، الذى وعدنا بحسن المآب.

فإذا تركنا لقلمنا العنان ليكتب عن مآثر الإيمان، فسوف ينطلق إلى آخر الزمان، ويسهب فى وصف أفضال الحنّان المنّان .. لذلك لا يسعنا إلا أن نحمد الله بكل خلجات قلوبنا، وبكل ذرة فى أجسادنا، وبكل شعاع نور جاء به أنبياؤنا ورسلنا بحمده على نعمة الإيمان والإسلام.

ونردد قول الحق جلّ شأنه :

﴿الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله﴾

(الأعراف : ٤٣)

وصلّ اللهم على جميع رسلك الكرام وعلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار، وكل من اتبع سنته وسار على هديه من المصطفين الأخيار. آمين .. آمين .. آمين

المراجـــــع

يعتبر هذا البحث خاص بفكر العالم الإمام التقى الورع:
"بديع الزمان سعيد النورسى" .. وتسمى مؤلفاته "كليات رسائل النور".
ترجمة وتحقيق: إحسان قاسم الصالحى.
نشر وتوزيع: "دار سوزلر" للنشر - فرع القاهرة (١٠ شارع يوسف عباس - مدينة التوفيق - مدينة نصر - هاتف ٢٦٣٦٦٨٤).

وتشمل "كليات رسائل النور" الكتب التالية :

١- **الكلمات** .. ترجمة كتاب سوزلر SÖZLER عن التركية
الترقيم الدولى: ٧-٠٢١-٤٣٢-٩٥٧: I.S.B.N
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٩٢/٤٧٤١.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢- **المكتوبات** .. ترجمة كتاب المكتوبات MEKTUBAT عن التركية
الترقيم الدولى: ٥-٠٢٢-٤٠٢-٩٧٥: I.S.B.N
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٢/٨٤١٤.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.

٣- **اللمعات** .. ترجمة كتاب اللمعات LEM'AALAR عن التركية
الترقيم الدولى: ٣-٠٥-٥٣٢٣-٩٧٧: I.S.B.N
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/١٧٨٦.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

٤- **الشعاعات** .. ترجمة كتاب شعاعلر SUALAR عن التركية
الترقيم الدولى: ٤-٥٦٨٠-٠٠-٩٧٧: I.S.B.N
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/٨٣٢٣.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٥- **إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز :**
ترجمة كتاب ISARATUL - ICAZ عن التركية
الترقيم الدولى: ٥-٦٣٦٦-٠٠-٩٧٧: I.S.B.N
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٤٤٠-٩٣.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

٦- **المثنوى العربى النورى :**
ترجمة كتاب Meshevi I Nuriye عن التركية
الترقيم الدولى: ٣-٧٩٧٢-٠٠-٩٧٧: I.S.B.N
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٤/١٠٥٢٢.
الطبعة الأولى (بمصر) ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

٧- **الملاحق فى فقه دعوة النور :**
ترجمة كتاب LAHIKALAR عن التركية
الترقيم الدولى: ٦-٩-٠-٥٣٢٣-٩٧٧: I.S.B.N
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٥/٥٨٧٠.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

٨- صيقل الإسلام فى فقه دعوة النور :
ترجمة وتحقيق :

٥- Munazarât
٦- Divan-i Harbiörfi
٧- Hutbe-i Samiye
٨- Hutuvat-i Sitte
١- Muhakemat
٢- قزل إيجاز
٣- تعليقات على برهان الكلنبوى
٤- Sunuhat

الترقيم الدولى : I.S.B.N :٥٣٣٢-١١-X
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٥/١١٣٥٤.
الطبعة الثانية (بمصر) ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل

الفهـــرس

صفحة

الفصل الأول :

الفصل الثانى :

صفحة

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

صفحة

الفصل السادس :

رقم الإيداع
٧٩٣٦/ ٢٠٠٠
I.S.B.N.
977 - 5323 - 33 - 9